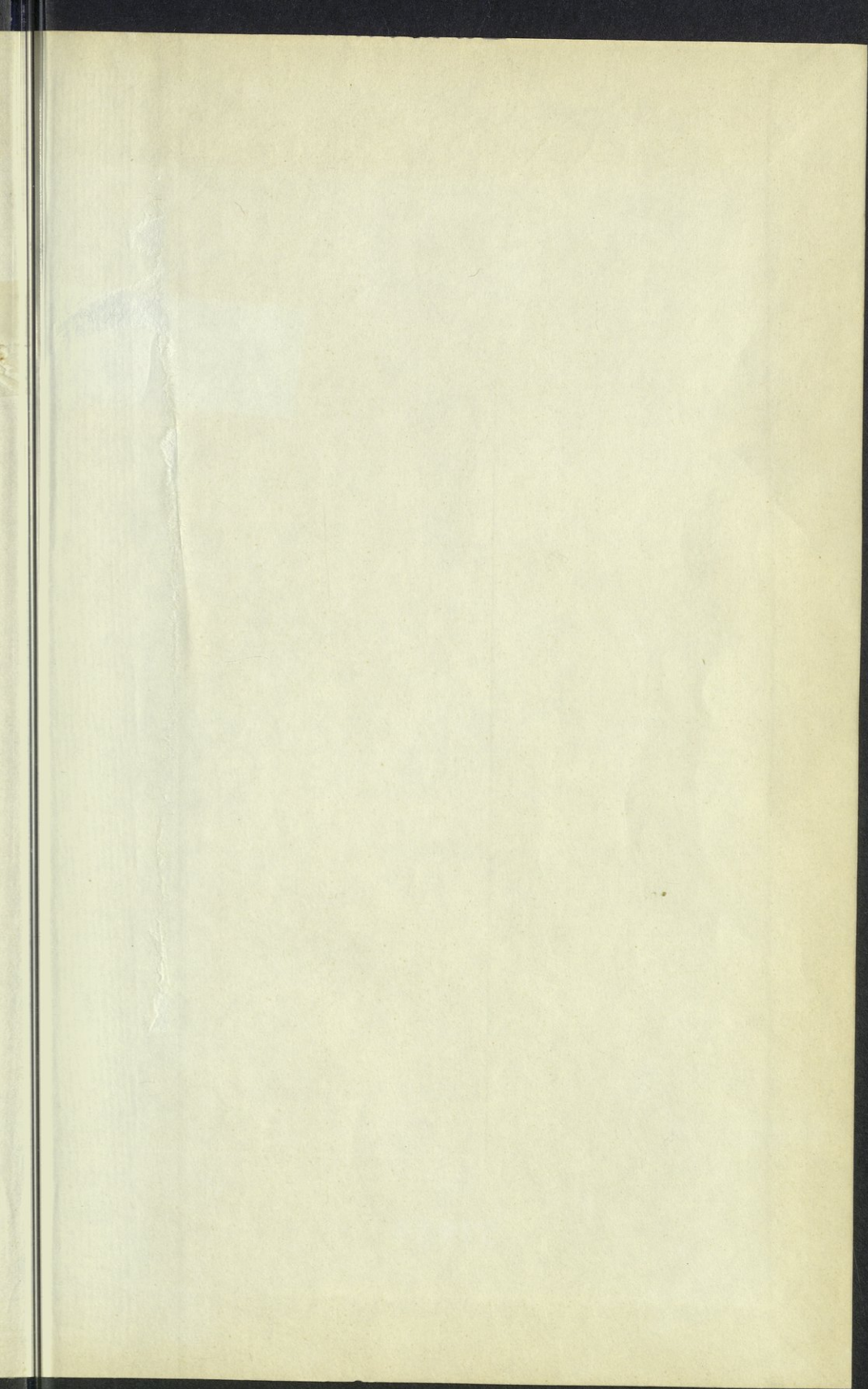


A.U.B. LIBRARY



حدود الكفار الخبيثاء

يتخلل هذه القصة وعلم
وذلك كبير ، بعض افكارهم التي
يؤمنون بها ويشعرون . ارجو ان تقرأها
واريد ان اسمع منك تعليقاً عليها
على كل حال ، هي حقيقة ومفيدة .

م . ح . ف
شكره

22/10/1891



My dear Mr. ...
I have the pleasure to ...
in reply to your letter of ...
the 10th inst. and to ...
inform you that ...

Yours faithfully,
[Signature]

Pat. Aug. 1891

١٥ ايار ١٩٣٣

الجزء ٣

السنة الثامنة

892.78
Q467dA

المجلة الأدبية للبنان

الادارة بيت شباب لبنان

مديرها ومحورها الخوري بولس قرألي

دلال

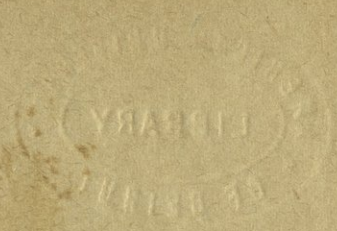
رواية مبنية على حادثة تاريخية وقعت في عهد الامير بشير الكبير
تصف الامير وحاشيته ورجال لبنان في عصره وعادات اهله
وفتح الجيش اللبناني لمدينة دمشق سنة ١٨١٠
ولقعة مانور في نابلس سنة ١٨٢٩

بقلم

كميل قرألي

57484

حقوق النشر والترجمة محفوظة



26

1871

3452

دلال

رواية تاريخية في عهد الامير بشير الكبير

بقلم

ك. ق. كميل قزالي

١

الصورة

رأها واقفة في النافذة المطلة على صحن الدار ، وقد توسط رأسها فضاء تلك النافذة المحلاة بالنقوش العربية ، فظنها لاول وهلة صورة قد اتقن الفنان صنعها ووضعها في إطار جميل ، فبرزت ملامح ذلك الوجه الملكي وخطوط تلك القامة الهيفاء في فضاء تلك الصورة الرمادي وكانت بهجة للعيون وسجراً للقلوب . وقد امتد من عريشة الدار الى الجدار المعلقة فيه تلك الصورة غصن جسور نضر ، حتى اذا بلغ اليها التف حول الاطاريح خلصة الى الفتاة ، وجاوزت بعض وريقاته افريز الاطار وتدلّ غيرها مرفرفاً فوق رأس النصيبة وكاد يلمس شعرها الحالك لولا خوفه من ستر لمعانه . وقف حسن مبهوئاً امام هذه الصورة ولصق عينيه بها . واذا نغر الفتاة يبتسم له وعيناها النجلاوان ترمقانه بلطف . فحلق في هذه الرؤيا وهول اليها ناسياً انه في بيت عمه وان العيون ترقبه من كل جهة ، ورفع يديه مبتهلاً هاتفاً :

— سعاد ! سعاد !

واذا بصوت أعذب من صوت سعاد يجيبه برقة :

— سعاد في الناعمة يا مير حسن . انا دلال . . . تفضل

ففظن الامير حسن ان امامه ابنة عمه الصغرى ، فسأها مرتبكاً

— هل عمي في الدار

فأدركت الفتاة انه مضطرب وانه يحاول اخفاء غايته من الحبيء فأجابته
بابتسامة خفيفة :

— ابي في حرب الشام ...

فزاد حسن اضطراباً وتماماً قائلاً

— شكراً لك يا دلال

وخرج وقد شعر ان جرحاً قديماً قد انفتح في قلبه وأن بلساً لطيفاً يدعى دلال
قد صب عليه فحف المله .

«سعاد في الناعمة !» كلمة كشفت في مخيلته الهائجة عن ستار ظهر وراءه على
مسرح حياته مشهد مر بجوادته المبهجة والمؤلمة كطرفه العين . سعاد التي احتلت قلبه
وهو لم يتجاوز السادسة عشرة ولا يعرف من الحب سوى الاسم . فقد شعر لأول
مرة قلبها بعد خروجه من مدرسة عين طورا ، بعاطفة غريبة سرت الى قلبه ، ولما
كانت هذه العاطفة عذبة تركها تحتله بارتياح . ثم أحس ان هذه العاطفة تقوى
وتتكشف في قلبه وتتسلط على كل نبضاته . فحاول عبثاً ان ينزعها وخاف من انكشاف
امره فلم يمح بها لاحد . وبعد قليل أخذ الأرق يلزمه ليلاً والقلق نهراً وصارت
قواه تنحط يوماً عن يوم .

ولما سأله والدته يوماً عن علته اطلعها بسذاجة على حقيقة امره . فتبسمت
وخففت عنه وأكدت ان لدائه دواء سهلاً لذيداً هو طلب يد سعاد من امرأة
عمه ، وان النجاح مضمون لما بينه وبين سعاد من القرابة والكفاءة في الحالة
المالية والاجتماعية ...

واذا بالمشهد يتغير وظهرت على المسرح والدته عائدة مساءً من بيت عمه متاقلة
في خطواتها مطرقة الرأس . وتذكر كيف انها لما رآته ينتظرها تكلفت الابتسام
وافهمته ان سعاد مخطوبة سرّاً للامير فاعور ابن الامير قعدان شهاب حاكم لبنان السابق
وانها ستجد له عروساً تفوقها جمالاً ومالاً . وتذكر أيضاً كيف انه انتفض عند سماعه

هذا الكلام انتفاض العصفور المذبوح واحس ان قلبه انخلع من مكانه وسقط
جثة لا حياة فيها .

فوسط لدى الامير حيدر عمه الاقارب والاصدقاء بحجة انه اولى بابنته من
الخطاب وكان عمه يردد هذا القول : لا طاقة لي بذلك والبت مخطوبة خطبة
رسمية كنسية وخطيبها لا يرضى بالتخلي عنها والكنيسة لا تسمح بفك الخطبة الا
لدواعي خطيرة . لان الخطبة بدء الزواج وما الاكيل سوى وفاء العهد ، والعهد
مقدس في الكنيسة وفي شرع الامراء . . . » الى غير ذلك من الكلام الذي
جعل الامير حسن يزيد يأساً يوماً بعد يوم .

واخيراً رأى مزاحمه يأتي بخيلة ورجله . وقد حدد يوم الزفاف واعلنه الكاهن
في الكنيسة ثلاث مرات متوالية وماجت بلدة اعبيه بالاجانب وارتجت بدوي البارود
وترويد الرجال وزغاريد النساء حتى ضاق صدره وفكر في مهاجمة بيت عمه واختطاف
سعاد . فراسلها سراً بواسطة خادمتها وعلم انها راغبة فيه ولا تمنع في الهرب معه .
لكن عبداً لابيها يدعى فيروز اكتشف المؤامرة واطلع والديه عليها فوفقا في وجهه
وهدهاه لما في الامر من العار عليهما وما يحجره من الخلاف بين بيتهم وبيت ابن عمه
والامير فاعور . فلم يعد يطيق صبراً وخاف ان يقدم على ما لا يرضاه شرفه وبنو قومه
فهرب الى صيدا بعد ان فاز من والدته بمبلغ وافر « وهناك بدد ماله مع الزواني »

علق في بدء الامر بفتاة يهودية تشبه سعاد شبيهاً غريباً بعينها النجلاوين وقامت
الهيفاء ووجها البيضوي وبشرتها الشفافة المتوردة قليلا . ولولا اتساع فيهما وشيء من
الغلاظة القروية في شفتهما الشرهتين ، وبعض الخفة في لحظها ، لخل اليه انها شقيقتها .
ولم يتكلف كثيراً في اجتذابها وامتلاكا فقد كانت تلاقيه يومياً مع خادمتها في
الميعاد المعين فيقضيان ساعات في ظل بساتين البرتقال المعطرة او فوق صخرة على
شاطئ البحر تداعبها الامواج . وكانت تدعى سامى فسامها سعادا ، وظن انه ملك
بها السعادة واعتاض بها من ابنة عمه . فكان يدر الاموال عليها وعلى والدتها وخادمتها

ويهدي اليهن اخضر الحرائر واثنى الاثاث وينظم لها ارق الاشعار الزجلية ، وقد كانت قريحته تجود بها بسخاء كما تجود يده بالدرهم

دام الحال على هذا المنوال اربعة اشهر ظن نفسه في اثنائها انه في فردوس النعيم واللذة . لكنه ما لبث ان تنبه ان طلبات صديقه تجاوزت الحد واصبحت ثقيلة عليه خصوصاً ان ماله أوشك ان ينفد . ثم لاحظ في ابتساماتها شيئاً من التكلف وفي لحظها المتقلب شيئاً من الرياء وفي شفيتها الغليظتين بعض علامات السامة . وانها عمدت الى التبرج فققدت كثيراً من نعومة بشرتها وسذاجتها الاولى وظهر الفرق بينها وبين سعاد حتى في ملامحها .

وفي عصر احد الايام وقد بكر في الولوج الى دارها وجد الباب الخارجي مفتوحاً قليلاً فدفعه وصعد الدرج دون ان يشعر به احد ، حتى اذا صار في الطبقة العليا سمع قهقهة مؤلفة من صوت سلمي ورجل في الاربعين من عمره . فمشى على اطراف قدميه وشاهد من فتحة باب الغرفة منظرًا اقشعر له بدنه . . . فصعد الدم الى رأسه واستل خنجرًا كان في وسطه وهجم على الحبيبين فطعن الرجل في خاصرته طعنة نجلاء وجره عن الفراش الى الارض ، ثم اخمد الخنجر في صدر سلمي العاري مرة ومرتين وثلاثاً . وخرج لا يلوي على شيء . . .

هجر صيدا وجاء الى صفد حيث عين احد اقاربه الشهابيين مديراً على حدادة سنه . وهناك اطلق لنفسه العنان في معاشرة بنات الهوى . فكان كما تعرف بواحدة شك بأمانتها فاستبدلها بغيرها من دون ان يتأثر كثيراً لخيانته بل كان يعد ذلك التقلب امرأ عادياً في النساء . وقد أدمن الخمر فاستسلم للسكر والعريضة والدعارة واصبح من احط الساقطين . وفقد كل شعور الفضيلة والمروءة والشرف والضمير .

ولسكن لا الشهوات الحيوانية التي انغمس فيها ولا حماة السكر التي تخبط فيها قويت على ان تنزع من قلبه المتصلب تلك العاطفة النبيلة التي سيطرت بها سعاد عليه لأول مرة . بل كان كلما زاد تمرغاً في ادناس الفجور اتسع الفرق بين حالته

الحاضرة المنحطة وحالة الطهارة والشرف التي كان عليها في بيت ابيه ، بين هذه النساء المتهتكات البائعات لاجسامهن بدرهم او كأس خمر وبين ذلك الوجه الملكي البشوش وتلك النظرات العفيفة المخالصة التي كانت سعاد تستقبله بها ، وعلى الاخض تلك الحشمة التي كانت تبدو على ملاحها وهندامها . . . وقد كانت فوق كل ذلك توده وتحترمه في آن واحد ، بينما هذه الزواني يضحكن من حبه الاول وسداخته الجلية ولما نفذ شعوره وماله وتكررت اوامر والده اليه بالعود أو يحرمه حقوق البنوة والامارة ، وكان قد سئم سماجة تلك الحالة الدنسة كما يشمئز الانسان من قيص قدر لاصق بجسمه ، صمم على الرجوع الى بيت والديه . جاءه فوجده خالياً لان الامير حموداً التحق مع اولاده ورجاله بحملة اللبنانيين على دمشق . لكن والدته التي لم تقطع الامل برجوعه أبت له حصانه « سعداً » ذا النجمة البيضاء على جبينه والنظرات الودودة . ومع ذلك فانه لم يتأثر من صهيل الفرع الذي قابله به هذا الحيوان الامين والحركات الكثيرة التي كان يظهر بها سروره بعودته ، بل لبث في البيت منفرداً يمضي النهار امام نافذته المطلة على الوادي والبحر العظيم الممتد بعده . وقد لمحت له والدته مراراً الى اللحاق بابيه ، فلم يكن ليعير كلامها التفاتاً وكان يشعر بانحطاط القوى وفقد الشجاعة والفروسية التي طالما فاخر بها اقرانه . وقد شحبلونه وغارت عيناه واهتزت اعصابه فاصبح يغضب لادنى سبب ويبغض الناس وعشرتهم ويظهر كراهة قوية للنساء ، معتقداً انهن جيلة من المسكر والفحشاء والسفالة . ولما فاتحته يوماً والدته بأمر الزواج ضحك ضحكة صفراوية وردد لها بوقاحة شعراً كان حفظه في المدرسة وخطر مراراً على ذهنه بعد عودته :

ان النساء شياطين خلقن لنا اعوذ بالله من شر الشياطين

فلم تتكدر والدته من هذه الجسارة الغريبة انما تأثرت من الحالة التي اصبح فيها ولدها .

وما لبث شهراً في البيت حتى مل عيشة الانفراد وضافت عليه الدار على رحبها .

وكانت قواه قد عادت اليه وهمدت اعصابه وتذكر صديقه « سعد » فهم اليه وأسرجه واخذ يمتطيه غلساً كل يوم ويذهب به مع احد الخدم الصغار الى الصيد ولا يعود الا متأخراً في المساء . فانتهزت والدته فرصة هذا التحسن وافهمته ان الواجب عليه رد الزيارة الى امرأة عمه التي جاءت من اول يوم وصوله للسلام عليه وتهنئة والدته بعودته . وقد اشارت عليه تلميحاً ان يجتهد في رؤية ابنتها الصغرى « دلال » ونوهت بأدبها وجمالها واكدت له انها صورة مصغرة لسعاد

فهاجت ذكرى سعاد في قلبه وما مضى على هذا الحديث يوماً حتى شعر ان صورتها ما زالت سليمة في قلبه وذهب الى بيت عمه بحجة رد الزيارة وفي الحقيقة انه قصد مشاهدة ذلك البيت الذي كان موضع احلامه الاولى . وكان اول ما وقع نظره عليه الصورة في النافذة ، تلك التي ناجاها كما يناجي الانسان ملاكا . ولشدة اضطرابه وخفقان قلبه خرج من الدار دون ان يزور امرأة عمه ومن غير ان يفقه سبباً لتعديه على اصول اللياقة . والحقيقة انه خاف ان يحو من ذهنه تلك الرؤية اللطيفة بمشاهدة شخص آخر غيرها . فهم على وجهه . ولم يفق الا وهو على بعد بضع خطوات من دار ابيه . فخاف ان يدخله وهو على هذه الحال من الاضطراب واتخذ طريقاً صاعداً الى حرش الصنوبر الذي يكمل هامة القرية .

ولما بلغ اليه جلس تحت احدى اشجاره وسرح نظره في الافق الواسع المنبسط تحت بصره من قرى ووهاد متدرجة الى الساحل المستدير ثم البحر العظيم المفارش ارض الافق ، وقد اقتربت منه الغزالة لتبيت فيه وارسلت اشعتها الذهبية تلم رؤوس القمم والاشجار والصخور المنتصبة في طول تلك البقعة وعرضها لتوديعها . واذا بشعاع يدنو منه ويداعب جفنيه . فاطبقهما . واذا بتلك الصورة التي شاهدها في صحن دار عمه معلقة بمجال تلك الاشعة الذهبية النخيفة ، وشعر انها تحل في قلبه محل سعاد اختها بدون عناء للتشابه بين الاثنين . فلم ير حسن في هذا الاحتلال مانعاً بل

لاحظ ان الصورة الصغيرة أبدع وارق من تلك ، فترك ملامحها تنطبع فوق ملامح الاولى حتى كادت تمحوها ...

نهض حسن في صباح اليوم التالي وقد اعتقد ان الفوز بدلال بلسم لذيد قريب المنال يشفي كل قروحه الماضية ويضمن له الراحة والسعادة بعد ذلك الاضطراب الطويل . فذهب الى والدته وكانت جالسة على مقعد من الابسطة العجمية مرتفع عن الارض قليلا ويدها النارجيلة وامامها طبق القهوة على مائدة صغيرة . فسلم عليها ولثم يدها وجلس بالقرب منها ، فعجبت من ذلك لانه كان بعد رجوعه الى البيت كالغزال النافر . فسكبت له فنجاناً وناولته إياه وهي تنظر الى عينيه فاذا فيها سؤال . فأومأت الى الوصيصة فخرجت وبادرت به بالكلام باشة .

— ما وراءك يا حسن ؟

فلم يتكلم حسن عن بسط حكاية الصورة دون ان يذكر امتناعه عن زيارة امرأة عمه . ولما أبدى رغبته في طلب دلال لاحظ في ملامح والدته شيئاً من الانقباض . فخار في امره وسألها

— وهلا ترغبين يا امامه في هذا الزواج

— بل اطلبه لك يابني من صميم قلبي ، وانا التي دفعتك اليه لما في هذه البنية من الخصال الحميدة . ولكنني لست بطالبة يدها هذه المرة . كفاني ما احتملت من والدتها في طلب اختها . ورأي ان تكلف هذه المهمة معلمك الاب انطون شراباتي ، ولا بد انه فائز بها لما له من الكلمة المسموعة لدى عمك الامير حيدر والامير بشير . وهو يحبك وقد سألتني عنك مراراً في غيابك . تجده الآن في بيت الدين . وهو على اهبة السفر الى الحرب فاقصده حالاً .

فركب حسن في الحال الى بيت الدين وقد عادت اليه هواجسه وشعر ان اليأس ينشب اخفاره من جديد في صدره ، ولولا عظم ثقته بمودة الاب انطون وحسن

تديره ونفوذه في كل امر لادار عنان حصانه الى صيدا التي كانت تظهر له في آخر
السهل بقعة خضراء بين البحر اللازوردي والجبل الاجرد . واذا بصورة سلمى
عشيقته الاولى تظهر في مخيلته وقد انفتحت في صدرها العاري ثلاثة جروح كبيرة
تفجرت منها الدماء ، وقد بلغت هذه الدماء احمراراً وهاجاً لم تعد تحتمله عيناه .
فاطبقيهما . واذا بالمشهد يزداد فظاعة وكأن القتيلة قد انتصبت في الفراش وحملت فيه
شذراً . . . واذا بالرجل رفيقها مطروحا في ارض الغرفة وقد تصلبت ذراعه وجحظت
عيناه وفتح فاه . . . فعادت ذكرى الخيانة الى ذهن حسن وتدفقت النعمة الى صدره
وحل الغضب فيه محل الخوف . ففتح عينيه وقد توارى المشهد وبانت تحت نظره قرية
دير القمر بأبنيتها المتراسة وازاءها ، فوق الوادي ، سراي بيت الدين تنظر من فوق الاشجار
الكثيفة بعبوس استمدته من هيبة صاحبها الامير بشير الشهابي الكبير . فشعر حسن
ان هذا القصر العظيم قلعة وجنة وانه يحمل على الخوف اكثر من الارتياح . واذا
بصورة استاذة الاب انطون تبدو امامه بشوشة ودودة حنونة اكثر من والده ، الذي
قلما كان يراه لانهما كه في الحروب والسياسة . وتذكر عهد الضبا والبون الشاسع بين
صفائه وطهارته والحالة المعركة التي أسمى فيها الان . وتذكر الساعات الطويلة اللذيذة
التي كان يمضيها بصحبة اخوته مع هذا الاب الوقور وكيف كانت تذهب سريعاً بدون
ملل لما كان يتخلل الدروس من القصص التاريخية الحماسية عن المردة وامراء لبنان
العظام وأبطاله وشهيدائه

واذا بحصانه يصل صهيل الفرح ويعدو في الميدان الواقع امام السراي جنوباً
فاجابته الخيل المجتمعة هناك كمن يرحب بقدومه والتفت الجند والمكارية الواقفون
فعرفوا الامير وترا كضوا لاستقباله . ولاحظ حسن امام القصر حركة غير عادية
فكان الخدم يحزمون الاثقال والعساكر تروح وتجيء بسرعة والفرسان يهيمون
خيولهم . ولما اصبح في صحن الدار الخارجي تجلت امامه واجهة القصر بكل عظمتها
وجمالها . فاخذ نظره يتنقل من القناطر المزدوجة المصطف بعضها فوق بعض والاعمدة

الرخامية التي تحملها والحجارة الملونة والنقوشات البديعة التي تزرعها الى ذلك المدخل العظيم الذي يتوسطها ويعلوها بقامته . وقد تسابقت الوان حجارتها الرخامية وعناقيد نقوشه العربية للتأثير على القادم وادخال الرهبة والعجب في قلبه . ففكر حسن ان تلك البوابة الانيقة ترحب بالزائر عن مكر ورياء لان ليس كل من يدخلها يخرج منها سالماً .

فاتجه الى السلم الصاعد الى الطبقة الاولى تاركا البركة العظيمة التي تتوسط الصحن الخارجي عن شماله . واذا بالاب انطون ينزل مسرعاً اليه واذا بذراعين مبسوطتين تستقبله . فارتقي حسن على عنق معامه المحبوب ثم تخلص منه بلطف وقبض على يده وقبلها مراراً . فأحس السكاهن بحرارة شفتي الشاب وارتعاشهما فأخذه من يده وصعد به الدرج الرخامي وقاده الى غرفته الخاصة المطلة على البهو الداخلي وقد توسطته بركة صغيرة رخامية امر الاب انطون الخادم بفتح فوارتها فانفجر منها الماء وسقط رذاذاً لطيفاً برنة عذبة على صحن البركة . فوقف حسن يتأملها ونسي انه بصحبة استاذة وظهرت في طرف شفثيه ابتسامة مرة . وكان الاب انطون يراقبه فرأى على وجه الشاب علامات اضطراب لم يكن قد اتبه اليها فأمسكه من يده وادخله الى غرفته وترك بابها مفتوحاً لاشتداد الحر وليسمح لتأيمده بالنظر الى البركة فيشرح صدره برويتها . ثم اجلسه على المقعد المكسو بالسجاد وبش في وجهه هاتفا :

— أهلاً وسهلاً بالامير حسن بولدي العزيز

فلم يجب حسن من شدة التأثير . ففهم الاب ان في صدر الامير الشاب قلقاً غير عادي . فتابع كلامه قائلاً :

— لو تعلم يا بني ما يخالجي من السرور للقائك تتحقق عظم محبتي لك ولايقنت أنك لم تبرح من فكري كل مدة غيابك . وانك ما زلت اعز اولادي ...

قال هذا ونظر اليه نظرة عتاب أبوي ففهم حسن ان استاذة عالم بكل شيء .. فأتق خجلاً امام طهارة هذا السكاهن ودناسة قلبه . ولما رفع نظره اليه رأى عيني

ذلك الكاهن الجليل مبتلين بالدموع . وسمعه يقول :

— يا حسن افتح لي قلبك فاني شاعر بمقدرة على مداواته

فتشجع حسن وقال له :

— جئتك يا ابي حائراً متألماً اطلب منك الاسعاف بالمشورة . انك تعلم ما حل بي لاجل سعاد (وقد لفظ اسمها بصوت خافت) وما أَلت في قلبي من الاضطراب وقد كان هادئاً صافياً كهذه البركة الصغيرة . ولكن ما شعرت الا وقد انفجرت فيه عاطفة لم اكن ادري من امرها شيئاً كما انفجر الماء من قلب هذه البركة لما أمرت الخادم بفتحها . سررت بهذه العاطفة لانني شعرت بها لطيفة عذبة ولكنها ألقت القلق في صدري . انظر الى التموجات التي يحدثها هذا الرذاذ في هذه البركة الصغيرة فهو مع نعمته قد القى الاضطراب في كل جوانبها وأنت تعلم يا أبت البقية . زفت سعاد الى الامير فاعور وهمت انا على وجهي الى صيدا وهناك . . .

فقاطعه الاب انظون قائلًا :

— مالنا وصيدا وغيرها وقد عدت الينا سالماً

— سالماً ؟ كلا بل مريضاً معطوباً

— والآن قد تماثلت الى الشفاء

— لقد خفت عني وطأة المرض وكادت جروحي تندمل . ولكنني اعتقد

اني اضعت اجهل شطر من حياتي وخسرت أظهر جزء من قلبي .

— لقد اضعت براءتك الاولى ودنست قلبك . ولكن تذكر يا بني انك

مسيحي وانه لا يزال ميسوراً لك ان تكفر عن ماضيك وتغسل اوساخ نفسك وتعيش عيشة جديدة شريفة مرضية لله وللوطن .

.. وهل تعود اليّ بعد ذلك راحتي ؟

— بدون شك

— وقلبي ؟

- ان حالة قلبك تابعة لتحسن صحتك الادبية . فافتحه لي لانيه من أدرايه .
أجثُ واعترف ...

فلم يتردد الامير حسن بل جثا على الارض وأسند رأسه بيده اليمني وأخذ يسرد على السكاهن سيرته من ساعة هربه الى صيدا وما جرى له فيها وفي صفد الى حين عودته الى البيت . وكان كلما اعترف بذنب شعر ان ثقله قد خف عن قلبه . وكان الاب انطون يساعده بلطف ومهارة حتى انتهى من الاعتراف بخطاياہ كلها . فارشده السكاهن بلهجة الاب الشفوق وكانت كلماته تنزل على قلبه الملهب نزول الغيث على الحجر . ولما رأى ان التأثير بلغ منه حده وضع يده على رأس الشاب ومنحه البركة . فأحسن حسن ان تلك اليد المباركة قد بددت من رأسه غيوماً متلبدة وألقت السكينة في صدره . فاثم يد معلمه بجمرة وشكر له معروفيه وجلس متأدباً .

وكان الاب انطون قد اقبل باب الغرفة قبل البد . بالاعتراف فاذا به يقرع قرعاً خفيفاً فنفض وفتح فرأى الخادم قد احضر طبق القهوة فتناول منه ووضع الطبق على منضدة صغيرة مطعمة بالصدف تطعياً دقيقاً وصب الشراب اللذيذ من ابريق فضي جميل الصنع والنقش ووضع الفنجان الصيني في ظرف بديع مركب من خيوط فضية في غاية الاتقان . فشربا القهوة . ثم ملأ شبقاً وقدمه له فاعتذر حسن تأدباً . فالح الاب عليه وملأ لنفسه شبقاً آخر مثله فتعطرت الغرفة برائحة القهوة والتبع ثم التفت الاب انطون الى حسن مبتسماً وقال له :

- لقد اعطيتك الدواء الروحي لنفسك واهلي ان تشفى به باذن الله . بقي علي ان اصف دواء لقلبك . فلم لا تتزوج ؟

وكان حسن قد اخفى عن معلمه غرضه الاول من الحجيء اليه فأراد ان يتم تشييل ذلك وأجابه :

- وهل في الدنيا فتاة يمكنها ان تحل محل سعاد ؟

- نعم اقربها اليها شبقاً ودماً . وهي صورة مصغرة لها وفيها من الادب والظرف

ما يعوضك من شقيقتها . وقد بلغت الآن السن التي عرفت فيه سعاد

- اتعني دلالات ؟

- نعم هي بعينها . لم ترها بعد عودتك ؟

- رأيتمها امس وانا داخل في بيت عمي لرد الزيارة لوالدتها . كانت واقفة في
النافذة المطلة على صحن الدار فظننتها لاول وهلة سعاداً وناديتها بهذا الاسم . ثم
اضطربت وخرجت من دون ان أزور امرأة عمي .

- اذن فلنذهب معاً غداً لزيارتها ونطلب لك منها يد دلال

فظهرت على شفتي حسن ابتسامة مرة . وقال بتهكم :

- على شريطة ان لا تكون مخطوبة سراً ! ..

- لا إخال ذلك وسنعرفه عن قريب . هيا بنا الى العشاء وغداً نركب الى اعبيه

٢

الياسمينية

وفي صباح اليوم التالي ركب القس انطون والامير حسن مع بعض الخدم
قاصدين قرية اعبيه . فوصلا الى دير القمر بعد نصف ساعة وعرجا على دير الرهبان
الحلميين ، المشيد بقرب كنيسة « سيدة التله » شفيعة القرية ، لبعض اشغال كلف
القس انطون الرئيس اياها . فأعقهما الرهبان عن السفر واعدوا لهما مائدة أنيقة
شرب فيها الحاضرون على نخب الامير بشير الذي وحد كلمة اللبنانيين وأعلى مكانتهم
بين الملل المجاورة وجعل لهم حرمة عند وزير عكا والباب العالي وولاية سوريا . ثم
شرب الرئيس نخب الامير حسن وهنأه بعوده سالماً الى الوطن وتمنى له ان يعود
من حملة دمشق محققاً فيه الآمال . فشكر الامير للرئيس تهانته وتمنياته ، وكانت
الحفرة المعققة قد شحذت قريحته ، فارتجل اشعاراً رجزية اطرب فيها كرم الرهبان
وخدماتهم للوطن وتقانيهم في سبيله ، ونوه بشجاعة اللبنانيين في الحروب والمجد

الذي حازوه في هذا العهد وتخلص الى مدح استاذ القس انطون ومكانته في العلوم والسياسة والثناء على تقواه ووداعته وشكر له افضاله عليه ، وختم بشكر الرئيس والرهبان لحفاوتهم به . وكان الحاضرون يرددون البيت الاخير من كل مقطع مصفقين مهلين فكانت الحماسة تزداد فيه فيجيد في النظم والانشاد حتى عجب الجميع من مواهب هذا الشاب الامير وحسن طويته مع ما سمعوه عن سوء سلوكه .
ولم يتركا الدير الا قبيل الظهر فوصلا الى جسر القاضي نحو العصر ، وقد مالت الشمس الى الغروب وبدأت تنسحب من الوادي ويحل محلها ظل كثيف خيم على النهر وعلى جانبي الوادي المذكور حتى دير عين تراز الواقف على كتفه الايمن . وهذا الدير مقر بطريرك الروم الكاثوليك ورهبانهم .

اما الوادي فزاد انشراحا لتخلصه من الشمس اللاخفة وتمتعه بالرطوبة المنعشة ، فعلت اصوات مياهه وتدفقت طرباً بين صخور ملساء التي كانت تظهر كالاضرار استدارة وبياضاً ، وكأن المياه الدائرة حولها ريقها العذب

وكان الدير ينظر عابساً من علوه ووحشته الى هذه المظاهر المبهجة ، وقد صم آذانه عن ضجيج الفرع المتصاعد من صدر الوادي الثمل ، والتحف بأشجار الصنوبر القائمة وظلت حجراته مائلة الى الالوان الرمادية الضاربة الى السواد . فرأت الشمس الراحلة ان تداعبه وصوبت اليه انظارها بوقاحة فاحمرت نوافذه حياء ولم يعد في استطاعته الاحتفاظ برزاقته وهيبته . فضحكت الطبيعة حوله من حالته هذه وامتدت الابتسامة الى الغابة المحيطة به ومنها الى الصليب القائم فوق قبته فأخذ يلعب في الفضاء .

لاحظ حسن وهو ابن الجهل كل هذا فقهقه كمن تناول الافيون وقال لرفيقه
السكاهن :

- حقاً ان الشمس قليلة الحياء حتى تتحرش بالرهبان المنزوين في هذا الدير العالي بعيدين عن العالم وضوضائه ومهازله ...

وقبل ان يفهم الكاهن مراده من هذا الكلام اعترض له احد المشايخ في طريقه ودعاه مع رفيقه الى المبيت في داره . فحاول الاب انطون الاعتذار اليه واذا صاحبة الدار قد خرجت من الحديقة وأخذت تلح في الدعوة . فقال لها الاب انطون :

— نحن مضطرون ان نكون الليلة في اعييه

— ان بينكم وبينها ساعات يا أبت

— نسير في ضوء القمر

— ان التمر يتأخر ظهوره الليلة . فيضيء نوركم في دارنا عوضاً منه .

وبينما كان الكاهن على وشك استئناف السير اذ لاحظ في رواق الدار فتاة هيفاء متكئة على احد اعلمده ، وبقر بها فتاة اخرى تفوقها جمالا مستندة على كتفها ، وهما تنظران الى الامير حسن وتهاامسان . فعرف الاب ان الثانية منهما دلال بعينها تلك التي جاء في طلب يدها للامير حسن . فسأل الشيخة :

— هل الاميرة دلال في ضيافتكم ؟

— نعم . جاءت لزيارة ابنتي دعد ومشاركتها في افراحها القربية

— مبروك ربنا يتم لكم بالخير

— لا تقبل لك تهنئة في الطريق . تمضيان الليلة عندنا فيكمل فرحنا

قالت هذا وهي تنظر شزراً الى حسن لان عينيه كانتا متجهتين نحو الرواق .

فلاحظ القس انطون ان الشيخة مستاءة من جسارته . فقال لها :

— الا تعرفين رفيقي ؟ الامير حسن حمود . . .

— الامير حسن حمود ؟ ابن عم دلال ؟ صار لنا الشرف

قالت هذا وانحنت قليلا امام الامير الشاب وقد تغير شكل نظرتها ثم هتفت :

— لقد كمل الآن سرورنا بتشريف اميرين ووالدهما في ليلة واحدة .

والتفتت الى الرواق وصاحت :

— يا دلال . هذا الامير حسن ابن عمك !

ولما صعد حسن الدرج الموصل الى الرواق ووضعت دلال يدها في يده شعرت
كان ناراً المستها . فاضطربت وجذبت يدها بخنفة وطوقت بذراعها عنق رفيقتها متسكئة
عليها . ولما جلس الجميع على الابسطة في الرواق أحست كأن عيني حسن جهرتان
مصوبتان الى وجهها ولم تفقه لذلك سبباً . ولم تحضر العشاء تلك الليلة بل اختلت
مع رفيقتها في غرفتهما مدعية قلة شهوة الطعام .

وبعد العشاء والنارجيلة انزوى الاب انطون في غرفته ليصلي وذهب حسن
ايضاً الى الغرفة المعدة له وقضى ساعات طويلة من الليل يتقلب على فراشه دون
ان يغمض له جفن . وكانت الليلة حارة فالتحف بعباءته المقصبة وخرج الى الرواق
المطل على الوادي وقد اشد ضجيج النهر في سكون الليل وملاً فضاء تلك البقعة .
وبرز القمر كبيراً من وراء الجبل الشرقي والقي اشعته الفضية على الوادي ، فلمعت
صخوره الملساء وتلألأ زبد مياهه واستنارت رؤوس الاشجار وبرز الدير باشاً فوق
الغابة بحلة بيضاء زاهية وتفضضت نوافذه وسطع صليبه . فشعر حسن ان صورة
دلال المحبوبة قد احتلت بهدوء ولطف قلبه المضطرب كما احتل هذا القمر الوادي
التائر ، وان جوارحه قد قابلت هذا الاحتمال بانسراح فتحولت عواطفه
وافكاره الى هذه العيون المسكية التي كانت مصوبة اليه ساعة وصوله الى دار الشيخ ،
ولما اخذ بيده يدها الصغيرة أدرك ان تلك الانامل الناعمة كانت ترتعش وان نظرها
لم يكن يطبق التحديق اليه في اثناء جلوسهم في الرواق . ومع ان لحاظها لم تتركه
ثانية فقد كانت تخفضها حياء كلما وجه نظره اليها . فهل يمكن ان لا تمسها شرارة من
العاطفة الملتببة التي يشعر بها نحوها ؟ لا بد انها تميل اليه ويجب عليه ان يتحقق ذلك
قبل سفره الى والدتها ، حتى اذا وثق من ميلها لا تعود قوة في الارض تستطيع ان
تنزعها منه هذه المرة .

فصمم على استطلاع رأيها . ولكن انى له ان ينفرد بها وهو عازم على
الركوب غلساً الى اعميه ؟ فأخذت تجول في فكره مشاريع كثيرة يجد في كل منها

صعوبة لا تغلب . وانبج الفجر ولم يوطن النفس على شيء . فعاد الى غرفته ولبس ثيابه وجلس على مقعد بقرب النافذة يرتشف نسيم الصباح الذي كان يمر في الوادي رطباً هائماً . وبعد ساعة مضاًها غارقاً في هواجسه لاحظ في الحديقة شبح فتاة يتنقل بين الاشجار . وما لبث ان عرف دلالة . وكان الارق قد لازمها طول الليل فنزلت مبكرة الى الجنيينة دون ان توقظ رفيقتها . فالتحدر ورائها وكان يحفت بوقع قدميه على السلم الرخامي المؤدي الى الحديقة لئلا يشعر به أحد . وبعد ان دار حول بعض اشجار البرتقال شاهد دلالة بقرب ياسمينية وقد زينت رأسها بزهراتها وكانت مشتعلة بضم عقد منها . فتركها حتى انتهت منه ووضعته في عنقها متديلاً الى صدرها بين ضفيريها . وكانت مرتدية صدره محفورة الاكام محلاة بخيوط القصب الفضي رسوماً جميلة تلتف حول بعضها فتعانق ثم تتباعد وتصعد صفين متوازيين يلتقيان تحت عنق الفتاة ثم تنحدر متوازية متعرجة فتتصافح فوق خصرها . وتحت الصدرة المفتوحة من الامام قميص من حرير ابيض شفاف يظهر من خلال طياته رداؤها المحمل بالارجواني . ولما احست بقدوم حسن رفعت عينيها فاذا هو امامها يلقي عليها سلام الصباح . فردت عليه التحية باشّة . فقال لها وهو ينقل نظره بين رأسها ، حيث كانت باقة الياسمين تزيد شعرها الحالك لمعاناً ، ونحوها المرمري ، حيث عقد الياسمين بزهوره الذكية :

- اني مسافر يادلال بعد قليل الى اعميه فهل من خدمة لامرأة عمي ؟

شكراً لك . ان زرت والدي هذه المرة ، وهي تنتظر دائماً ان ترد لها الزيارة ،

فقل لها اني في خير كما تراني

- وهل كنت منزوعة الليلة الماضية فلم تشاركينا في العشاء ؟

- لم يكن لي شهوة للاكل

١٦

- وما هو سبب تكبيرك الى هذه الجنية ؟

- اني احب نسيم الصباح في هذا الوادي ، خصوصاً اذا هب على هذه الياسينية ،
فيمعطر منها قبل غيره ويتربط بندائها قبل ان تجففه الشمس
- وهل تغارين على هذا الزهر النحيف من نسيم الصباح وشعاع الشمس كما
انا اغار عليك من العيون ؟

فتورّدت وجنتا دلال حياء لهذه المفاجأة واطرقت هنيئة لا تجد جواباً . ثم
رفعت رأسها بأنفة وقالت لحسن

- وما الداعي الى هذا الكلام وانا الآن وحدي معك ؟

- لا داعي له سوى انك ابنة عمي واخت سعاد التي احببتها من صميم جوارحي
وقدّدتُ شطراً من قلبي لاجلها . وقد ضاعت سعاد مني وكنت اعتقد ان عمري
ضاع معها لو لم أرك ذلك اليوم في النافذة وقد ابتسمت لي وخاطبتني بلطف .

وكانت دلال تسمع كلامه بارتياح ولا تجسر ان تنظر اليه أو توقفه . وقد شعرت
برنة الاخلاص والجد في كلامه وبنبهة التأثير في صوته . فتأثر قلبها الرقيق وأشفق على
حالته . وكانت عالمة بحبه لشقيقتها حباً جماً خالصاً وكانت تلوم في قلبها والديها لانهما
ظالما شقيقتها وابن عمها معاً . ولكنها ما لبثت ان ملكت عواطفها وحصرت نظرها
في سلسلة ذهبية معلقة في حزام حسن يتدلى منها قلب صغير من ذهب مرصع في غاية
الدق والمهارة . واذا شعاع من الشمس المشرقة يخترق اغصان الشجرة الواقفان في
ظلها ويحط على ذلك القلب الصغير فأبرقت حجارتها . فارادت دلال ان تغير مجرى
الحديث وتخفي تأثرها من كلامه فصاحت :

- ما اجمل هذا القلب الصغير !

فما كان من حسن الا انه انتزعه من السلسلة وقدمه الى الفتاة . فتمنعت قائلة :

- ما هذا ؟ ..

- فأجابها بحمد وتأن :

- هذا قلبي أضعه بين يديك لحفاظي عليه . . .

فنظرت اليه ، فرأت في عينيه توسلاً وحباً خالصاً . فأضاعت رزانتها ومن غير ان تقدر عواقب ما هي قادمة عليه ، مدت يدها وتناولت القلب المرصع . ثم فتحت صدرتها من جهة الشمال وعلقت ذلك القلب على قميصها فوق قلبها . وأطبقت الصدرة ووضعت يدها حيث ذلك القلب ورمقت حسن بنظرة معناها :

« هل انت مسرور مني الان ؟ ساحافظ على القلبين معاً »

فكاد حسن يحزن من فرحه وفكر في ان يضم الى صدره ذينك القلبين . فلم يجسر احتراماً وتادباً ، مع ان امامه فتاة ضعيفة ، لسكرتها ملاك طاهر خاف ان يخذش عواطفها ويحملها على سوء الظن فيه . فتناول احدي ضفيريتهما وقبل طرفها باحترام يقرب من العبادة . ومع ان بنات الهوى كن في صيدا وصفد طوع بنانه فقد وجد في لثم طرف ضفيرة هذه الفتاة العفيفة لذة يبيع في سبيلها حياته رخيصة .

وبينما هو في ذلك اذ اشتبكت ضفيرة شعرها بعقدتين من الكهرمان كان معلقاً في عنقها فانثرت وتناثرت حباته على الارض . فاسرع حسن الى التقاطها وجعل ينظمها واحدة واحدة كما كانت دلال تضم زهور الياسمين . كان يقوم بذلك ببطء خوفاً من ان ينتهي منه ولا تبقى له حجة للوقوف امامها ، وكانت دلال تنظر اليه ضاحكة من قلة مهارته وارتعاش أنامله . فقالت له هازلة :

- لقد قيل لي انك شجاع فهل هكذا ترتعش يدك اذا قبضت على السيف ؟

- اني ذاهب غداً الى الحرب اكراماً لعيونك . وستعرفين بعد ان اخوض

غبارها اني لم ارتعش في حياتي الا امام دلال . فان حافظت على هذا القلب الصغير

الذهبي سأنازل الجحافل بقلب من حديد !

وكان قد انتهى من نظم العقد الكهرماني فأعاده اليها مرغماً . فخطر لها ان تدعه

في يده عوضاً من القلب المرصع لكنّها خافت من ان تسألها والدتها عنه . فرفعت من عنقها عقد الياسمين وقدمته له قائلة :

— حافظ على هذا العقد كما ساحافظ أنا على هذا القلب

— سأبقى على عهدك حتى الموت !

— ولكن عليك يا حسن ان ترضي والدتي لانها مستاءة منك

— انا قاصد اليها اليوم مع القس انطون لاعتذر اليها واسأل رضاها فهل تسمحين

لي ان اطلبك منها ؟

فغظرت اليه مبتسمة وهزت رأسها علامة القبول

— وهل تعاهدني ان هي رفضت أن تثبتي على عهدي ؟

— اذا رفضت فعليك باي . وان تمنع فعليك بالامير بشير . ولكن مفتاح

الامر في يد والدتي فاجتهد في اكتساب عطفها

— فاراد حسن ان يشكر لها هذه المشورة واذا بوقع اقدام يقترب منهما .

وظهرت صاحبة الدار من وراء الاشجار . فقالت وقد أخفت ما يخامرها :

— صباح الفل يا حضرة الاميرين . يظهر ان عطر هذه الياasmine قد اجتذبا

بأكرأ...

وكانت دلال لما أحست بقدموها عادت الى الياasmine تقطف منها الزهور . فأجابتها

على الفور :

— اني اجمع منها باقتين لوالدتي ولامرأة عمي

وكانت الشبيخة ترغب كثيراً في التقريرظ وتنميق الكلام . فقالت :

— ستزداد رائحة هاتين الباقتين ذكاء لان يد الاميرة دلال جمعتهم واستقدمها

يد الامير حسن ...

٣
في غابة الصنوبر

M.V.

وبعد ساعة كان القس انظون وحسن صاعدين في غابة كثيفة من الصنوبر
البري تغطي سفح الجبل الفاصل بين هذه الجهات والبحر. وكان عبير الاشجار
يتمزج بنسيم الصباح البليل الذي جاء غاساً يتمشى بين مظلاتها وينعش صدور المارين
في ظلالها. وكان كلما ارتفعاً يخفت هدير الماء الصاعد من الوادي ويزداد لمعان
صخوره المستديرة وينكشف لون الغابات في سفحي الجبلين القائمين عن يمينه وشماله.
وما توسط الراكان الجبل حتى هاجمت الرياح الغابة فدخلتها صاحبة معربة
واخذت ترح فيها مطلقة لنفسها الأعنة. فتمنحى النسيم الرقيق، الذي يحب السكون،
امام جحافلها وفقدت الغابة رزانتها وشاركت الرياح في مجونها. فأخذت الاشجار
تهز رؤوسها طرباً وتلوي قاماتها الينة ذات اليمين وذات الشمال مترنحة كالسكارى
راقصة على صوت الرياح التي كانت تصفر صفير الجن حتى لم يعد احد الراكين
يسمع حديث الآخر. فاقترب حسن من الكاهن وحث الخيل حتى ابتعدا عن الخدم
واخذ يقص على استاذة مقابله لدلال في الصباح وكيف انه فاتحها بامر الخطبة فوجد
فيها ميلاً اليه. ولم يذكر للكاهن شيئاً عن القلب المرصع وعن باقة الياسمين المحبوة
في عبه والتي كان شذاهها يفوح فيسكركه، لكنه اطعمه على الخطبة التي رسمتها له دلال. فسر
الاب بذلك ورأى في ميل دلال الى حسن ضمناً لتحسن حالته النفسية فيصبح
رجلاً نافعاً للوطن، وواقفه على هذه الخطبة ولا سيما على ما يتعلق منها بنهايه الى
دمشق. وافهمه ان الجميع كانوا متعجبين من ابطائه في الانضمام الى الحملة اللبنانية وانه
كان يعتذر لهم عنه بانحراف صحته. وقد تعافى الآن فاصبح الواجب عليه كأمر
وكلبناني ان يسرع لاثبات وطنيته وفروسيته.

اما حسن فكان يقول في نفسه: اني لم استعد شجاعتي الا من كلمة دلال.

وما انا بخائض هذه الحرب الا اكراماً « لسواد عيونها . » لكنه أراد اخفاء حقيقة ما في قلبه فسأل القس انطون :

— وما الداعي الى هذه الحملة وما شأننا فيها ؟

وكان القس انطون من اقرب مستشاري الامير بشير ومطلعاً على دخائل سياسته

ومراميه الوطنية فأجابه :

— أنت تعلم يا بني ان اميرنا الكبير لما جمع الساطة في يده بعد وفاة اخيه حسن حاكم جبيل ولبنان الشمالي ، صفاله الجو واصبح في امكانه ان يوحد كلمة اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم واحزابهم ويجعل منهم جيشاً منظماً واداة حربية قوية تجبر ولاية عكا وسوريا على احترامهم والتهافت على خطب ودھم

— ولكن الامر لم يتم له الا بعد ان قتل جرجس باز واخاه وسمل عيون ساداتهما اولاد الامير يوسف وجردھم من مقاطعتھم واملاكھم وحبسھم في قرية درعون حيث جعلھم كارھبان لا يتزوجون ولا يقابلون احداً . . .

— فعل ذلك في سبيل الوطن . لان الامة التي لها رأسان تنقسم على نفسها فتخرب ولولم يفتك محمد علي باشا بالممالك لما بلغت مصر العز التي فيه الآن . وقد تجبر جرجس باز واخوه وشجعا مشايخ آل الخازن على العصيان واخذوا يتآمران مع حاشية والي عكا لاعادة تدخله في شؤون لبنان واقلاق راحته وتمزيقه بعد جمع شمله . وأنت تعلم مؤامرتھما مع حايم اليهودي كاتب عبدالله باشا والي عكا وسفر جرجس باز الى هذه المدينة وما جرى له فيها من الحفاوة وما دسه هناك من الدسائس . وكان الامير بشير قد حذر منه ورصد عليه العيون فعلم كل ما يضره له وتحقق ان لا راحة للبلاد الا بالتخلص منه ومن اخيه فقضى عليهما ونزع الساطة من موكليهما . — اذاً « فالغاية تبرر الوسطة وعمل الشر جائز اذا كان من ورائه خير » والقتل محلل في شريعتنا اذا كانت الغاية حميدة . . .

— انا لا اجوز القتل في سبيل غاية حميدة انما اعذر الامير على ما فعل . ولا

تنس ان الحاكم اذا عاقب لا يعدّ قاتلاً . وقد كان موقف الامير حرجاً للغاية ومصلحة الوطن في خطر عظيم . فلو استمر الاخوان على الاستعانة بالاجني لتنفيذ اغراضها لعاد لبنان الى شقائه الاول فاختل الامن وسادت الفوضى ومزقت الانقسامات احشائه فخرت بلدانه وراقت دماء ابنائه . وهذا لا يرضاه وطني مثلك . ومع ذلك ما لنا وما للماضي . انظر كيف ان الامير لما انطلقت يده في حكم لبنان بلغ به في وقت قصير اوج الرفاهية والطمأنينة والقوة . اسمع هذه الحكاية لتعرف الحد الذي وصل اليه الامن في لبنان في عهد هذا الحاكم الحازم .

كان احد ضباط الاكراد من حرس الامير مارا في ليلة حالكة الظلام على نبع ماء فتحول اليه واذا بفتاة تستقي منه فشرب هو وحصانه وما ابتعد قليلاً حتى داخله الشك في تلك الفتاة . فعاد اليها وسألها : كيف تجسرين يا بنية ان تأتي وحدك في هذه الساعة الى هذا المكان البعيد عن القرية . الاتخافين من مفاجيء اولص ؟ فأجابته : لست وحدي فالامير بشير معي .

فتركها الضابط . ولما مثل امام الامير في اليوم التالي اراد ان يتزلف اليه فاخبره بحكاية الفتاة وكيف انها كانت واثقة في ذلك المكان القفر من ان هيبه الامير تحميها .

فاما سمع الامير ذلك نظر غاضباً الى الضابط وصاح به : وكيف تجاسرت يا شقي ان تكلم فتاة وحدها في هذا المكان . وماذا كنت تنويه في عودتك اليها ؟ والله لو زدت على ما قلته لها كلمة واحدة لأطرت رأسك بهذا السيف !

ثم امر بسجن الضابط سنتين وطرده من الخدمة . هذه يا بني الحالة التي اصبحت فيها لبنان في الداخل فضلاً عن المركز المحترم الذي له في الخارج .

الا تفضل هذا على التطاحن وخراب وطننا العزيز ؟
فراى حسن ان القس انطون مع كل رزائنه ووداعته لم يتمكن من ضبط نفسه
عند ذكر الانقسام وانه يسمي لبنان وطنه مع انه حالي الاصل . فقال له بدوق لا
يعرفه غير الامراء :

- اننا نشكر لك يا حضرة الاب غيرتك على لبنان وعدك اياه وطنك مع
حنينك الى الشبهاء مسقط رأسك . وهذا ما لاحظته في اغلب الحليين المقيمين بيننا
- ان لبنان وطن كل مسيحي في سوريا والمعلل الوحيد الذي يلجأون اليه في
شدائدهم ، ففيه القوة المسيحية الوحيدة المستقلة عن الولايات المجاورة . فضلا عن ان
كل من عرف لبنان افتتن بجماله وكرم اخلاق اهله .

ولبنان وطن كل ماروني لانه مركز طائفتهم ومنبت اسرهم . فاصل الحليين
الموارنة ، جلهم ان لم تقل كلهم ، من شمال لبنان هاجروا منه الى حلب منذ مائتي سنة
واكثر طلباً للرزق ، والى الآن يعرف بيننا الحصري والبشراني والعاقوري
والعبيدي .

- وللحليين افضال كثيرة على لبنان وخدمات جليلة اديية ودينية ووطنية
تقدرها لهم حق قدرها ، وربما كانوا اخلص وطنية منا

- ذلك لانهم رأوا يا بني الفرق الشاسع بين حالة المسيحي في هذا الجبل
العزيز وحالته الذليلة في بقية سوريا . وهذا ما يجعلني اتأثر من الانقسامات التي تجعل
جابرته العوبة في ايدي الاجنبي فيبتز اموالهم ويذلهم ، وهذا ما يجعلني على التعلق
بالامير بشير الذي جعل للبنان مقاماً رفيعاً وسيلبغ به ان شاء الله ذروة المجد بالرغم
من اهله

- ولكن تحرشه بالدمشقين جيراننا وبذل الاموال والرجال ارضاء لولاة عكا
ليوطدوا مركزه في الحكم يعدّ أنانية . فلا يجوز له ان يفضل مصلحته الخاصة على
المصلحة العامة .

— اراني مضطراً الى ان ابوح لك بسر لا يعرفه سوى القليلين من الاعيان
فتقتنع ان مصلحة لبنان في تأييد سليمان باشا . فان نجحنا في تسليمه ولاية دمشق
عظم شأننا في الاستانة وفي كل سوريا واصبحنا حلفاء لسليمان باشا بدلاً من ان
نكون تابعين له . وانا لا اتردد في ان اطلعك على سر هذه الحملة لكي تنضم اليها
بكل جوارحك وتخدم فيها بشجاعة ونجاة كما اعهد فيك

انت تعلم كيف ظهر العرب الوهايمون في حوران كالجراد الزاحف فاخذوا
يأكلون الاخضر واليابس ويفرضون الغرامات على البلاد . ولو لم يهب ولاية الامور
الى الوقوف في وجوههم لرحلوا الى لبنان وجعلوا نصيبه الخراب مثل حوران . لكن
يوسف باشا والي دمشق خرج حالا بجيشه الى صحراء المزاريب ليصدهم وأرسل
يستنجد عليهم سليمان باشا والي عكا . فأسرع هذا الى نجدة وفي قلبه نيات غير
النجدة حتى اذا وصل الى طبريا كتب الى الامير بشير يستنهض همته ويطلب اليه
ان يلاقيه برجال الجبل . فانتبه الامير بشير هذه الفرصة لاظهار ما وصلت اليه قوة
جيشه والتفاف الاعيان حوله فجمع خمسة عشر الف رجل وقام بهم من دير القمر
الى جزين ومنها الى مرجعيون . فلاقته عساكر سليمان باشا الى خان المنى بالطبول
والزمرور واطلاق البارود ، ما جعل قلوبنا تهتز فرحاً لهذا الاستقبال الذي
لم يسبق حدوثه لحاكم مسيحي مع جيشه . وقد كنت في معية الامير ، فلما بلغنا
طبريا وجدنا اربعائة خيمة منصوبة لنا في سهلها . ولما اقتربنا من خيمة الوزير ترجلنا
ومشى الامير بثلاثة من رجاله وكنت منهم للسلام على الوزير . ولما دخل الخيمة
اذا بالوزير ينهض من صدرها ويتقدم للقاء الامير مع ان العرف يقضي ان يظل
جالساً في محله . ولما انحنى الامير للثم أتته اي طرف ثوبه انهضه الوزير وقبّله في
جبهته واخذه بيده وامره ان يجلس عن يمينه . وهذا فخر لم ينله حاكم في لبنان بعد
الامير فخر الدين المعني .

وكننت واقفًا على باب الخيمة فاما قدموا القهوة والشبق لم يرض الامير ان يتناول شيئًا قبل ان يسمح لي الوزير بتقبيل أتكه . فأومأ الي الوزير بالدنومنه ففعلت . فقال له الامير :

— هذا يا سعادة الوزير من أئمة النصارى ومن اولياء الله . هجر وطنه حلب واهل بيته واعزاه زاهدًا في الدنيا وجاء لبنان ليتربى في ديورته . ولما كان ذا صلاح وعلم ورأي سديد قرناه الينا وجعلناه من ارباب مشورتنا . فهؤلاء الرهبان متجردون عن الدنيا بعيدون عن اهوائها ومخلصون لله وللدولة وممثليها . وقد أوصانا بهم النبي عليه الصلاة والسلام

وكان الوزير في اثناء الحديث يبش في وجهي ويحني رأسه دلالة التأمين على كلام الامير حتى اذا انتهى قال :

— ان لاولياء الله منزلة رفيعة عندنا ولك يا امام النصارى معزة واحترام . فقبّلت أتكه شكرًا وخرجت .

— أو لم تسمع يا أبت مادار من الحديث بين الوزير والامير ؟

— ليس في عرف الליاقة ان يفتح الوزير ضيفه بامور السياسة في اول مقابلة . لكنه في اليوم التالي جاء لرد الزيارة للامير . وكان الامراء والمشايع مصطفىين امام الخيمة ووراءهم الجيش اللبناني باعلامه . فأعجب الوزير بهيئتهم ونظامهم وكان ينظر الى الجنود باسمًا ويقول لهم « عفارم لبنان ، عفارم أسود الجبل » وكان رصاص البنادق وهتاف الجنود يشق كبد السماء والاعلام اللبنانية البيضاء تخفق تيهًا في فضاء تلك البقعة الواسعة

وبعد ان جلس الوزير واجلس الامير بجانبه اظهر له الارتفاع من تليته اوامره بهذه السرعة وجمعه هذا الجيش الجرار . ثم قال له :

— انت من اخضاء رجال الدولة واكثرهم حكمة واخلاصاً . وقد فوضت اليك امر هذه الحملة ووضعت جيشي تحت قيادتك لترد العربان عن البلاد وتؤمن العباد شرهم

فأسرع الامير ولثم اتكه وشكره قائلاً :

— انا وجيشي والبنانيون جميعاً مستعدون للتغاني في خدمة الدولة وخدمتك فقال له الوزير :

ونحن ، لحسن درايتك وصدق خدمتك وطاعتك وقيامك بكل عمل جليل ، قد اقمناك والياً على لبنان ما دمت حياً

قال هذا واثار الى التشريفاتي فتقدم بخلاعة فاخرة من فرو السمور الثمين ، فتناولها الوزير من يده والبسها الامير دلالة لرضاه واثباتاً للنعمة الجديدة التي منحه اياها

ولما علم الامراء والمشايخ والجنود بما تم هزوا الارض من هتافهم ودوي بنادقهم ودعوا للوزير بطول العمر للنعمة المزدوجة التي منحها للامير والبلاد وهي تولية الامير بشير قيادة الجيشين والحكم حياته كلها . فسر الامير لهذه المظاهرة لانها بينت الوزير مكانته في لبنان واثبتت له ان الجميع ملتفون حوله ومتعلقون بمحبته

— وما علاقة كل هذا مع حملة دمشق الحالية وكيف انقلب الامير بشير على يوسف باشا واليها مع انه هب في بدء الامر لمساعدته ؟

— هذا ما ارغب في ايضاحه لك . ولكن عليك ان تسكته لانه سر لا يعرفه سوى الاخضاء وبعض الاعيان . بعد ثلاثة ايام من تولي الامير بشير قيادة الجيشين وردت البشائر بانسحاب الوهابيين . ففكر سليمان باشا في ان ينتمز فرصة اجتماع الجيشين وحسن استعداد الامير لخدمته لتوسيع سلطته . فقد كان سعى سرّاً في الاستانة وفاز من الباب العالي بضم ولاية دمشق الى ولايته وصار يتحين الفرص لاشهارالفرمان السلطاني لكنه كان خائفاً من ان لا يسلمه يوسف باشا الولاية طوعاً وهو لا يقوى على

أخذها منه قسراً لكثرة ماله ورجاله . فلما أمن جانب الوهابيين استدعى الأمير بشير وأطلعه على الأمر السلطاني واستشاره في ذلك قائلاً :

— ان كنت قادراً على ان تساعدني في ذلك فلنذهب الى دمشق ونقتنم فرصة اجتماع جيشينا وغياب يوسف باشا عنها فنستولي عليها بسهولة . والا فانا ارد الفرمان الى الدولة ويقتى امره سرّاً بيني وبينك

فراى الأمير بشير ان في تقوية سليمان باشا ومحالفته مصالحة عظيمة له وللبنان فأجابه على الفور :

— انا ورجالي في خدمتك نقاتل حتى نقتل أو نبغلك ما تريد فقال له الوزير :

حيالك الله من خادم نصوح . وانا افوض اليك امر هذه المهمة وقيادة الجيش العامة فافعل ما تراه موافقاً

ووعده ان يكافئه بتوسيع سلطته وإطلاق يده في الحكم وفي الحال احضر سليمان باشا قواد جيشه واعلمهم بالامر وامرهم بالتأهب . وارسل اناساً يقطعون الطرق لئلا ينم الخبر الى يوسف باشا . اما الأمير فرجع في الغد بجيشه الى مرجعيون وارسل فجدة الاوامر على البلاد ان يحضر اليه كل من تخلف عن الجردة الاولى . وكتب الى ابناء عمه ان يتوجهوا الى المقاطعات ويرسلوا اليه جميع الباقين من الرجال . وقد جند والدك وعمك الفاً ومائتي رجل تحت راية واحدة

وكان الشيخ بشير جنبلاط قد تأخر لبعض اسباب عائلية فكتب اليه ان يحضر حالا برجاله . وثق بأن الدمشقيين باتوا في وجل لانهم يعلمون ان رجلنا بالف فكيف وقد تجاوز جيشنا خمسة وعشرين الفاً . وانا اعتقد ان مستقبل لبنان والنصرانية في سوريا معلق على هذه الحملة . فان فرزنا اصبحنا حلفاء سليمان باشا ويده اليمنى فيطلق لنا الحرية في شؤوننا الداخلية ويخفف من غلوائه في طلب الاموال لان تعزيز لبنان

يصبح تعزيزاً لمركزه . وان شاء الله يابني سيكون لك حصة كبيرة في انتصار هذه الحملة لانك مقدم وذكي الفؤاد وساجتهد في ان احمل الامير على تكليفك مهمة تليق بك وتفتح المجال لاطهار شجاعتك وفطنتك فترتفع في عينيه واعين الامراء والشعب عامة وعيني دلال خاصة . لان بناتنا يهوين الرجل الباسل اكثر من الشاب « العيوق » الخامل .

قال هذا ونظر الى حسن باسمًا خوفًا من ان يحمل كلامه على غير مقصده فدبت النخوة في صدر حسن وأجابه بجد :

- انا ذاهب الى الحرب وسترى حضرتك ودلال اني شاب عيوق ورجل باسل

- هذا ما اعتقده فيك وانت حفيد الامير حيدر وقد كنت في صفرك تحب قصص عنتره وابي زيد المهلهل اكثر من كتاب الاجرومية وديوان المطران
وكان قد اجتازا قمة الجبل فظهر لهما فجأة البحر الازرق الواسع والوانه المنعكسة على قرى لبنان المطلة عليه . فقال له الاب انطون :

- هوذا البحر الجميل صديق لبنان وميدان فخر اجدادهم الفينيقيين فقد جابهو ورحلوا منه الى اقاصي الارض حتى اميركا ، في الوقت الذي لم تكن الشعوب الاخرى تجسر على ركوب زورق في بحورهم . انظر الى بيروت البيضاء الداخلة في البحر تراها كأنها سرب من الحمام نزل في الماء .

لكن عيني حسن كانتا قد تجاوزتا بيروت الى معلقة الدامور التي كانت تظهر عن ذلك البعد مرصعة في هلال الخليج بين بيروت وصيدا . ومن هناك انتقل نظره الى مزرعة الناعمة القريبة منها حيث استقر حزينا مفتشًا عن دار سعاد . خيل اليه انه يرى هذه المزرعة على صغرها وبعدها بيتًا بيتًا وريًا كانت مخيلته كالمنظار قد جسمتها امامه . فلاحظ الاب انطون ذلك ورأى الانقباض البادي على ملامحه ففهم انه مع ميله الى دلال لم ينس حبيته الاولى . فقال له مازحًا :

علاء الدين بشير حاكم لبنان

بم تحديق عن هذا البعد ؟

فاجابه حسن ببساطة

— بمزرعة الناعمة

— حيث سعاد اخت دلال ؟

فعادت الالبتسام الى شفقي حسن . وكأن اسم دلال سحر . فما لفظه الاب انطون حتى برزت امامهما سطوح قرية عبيه البيضاء . وقد علاها قصر الامير حيدر عمه وظهر رواقه واعمدته الجميلة . ثم صحن الدار وفي وسطه تلك النافذة وعريشتها . فشعر حسن بتشعيرة خفيفة لحلول الوقت الذي فيه يصدر الحكم له او عليه فيكون سعيداً حياته كلها بصحبة دلال او يعود شقياً تعسلاً لا يفقه للحياة معنى او غاية ...

٤

الطلب

ذهب القس انطون والامير حسن عند وصولهما الى اعبيه الى دار الامير حمود تواءم فهرول الخدم لاستقبالهما واخذوا الخيول الى الاسطبل الملاصق الدار واسرعوا فأعلموا والده الامير حسن فخرجت الى المصطبة التي امام قاعة الاستقبال المخصصة للحریم وهتفت « اهلا وسهلا بابينا وعزيزنا نورت الدار بتشريفك » . قالت هذا وتقدمت الى الدرجتين اللتين فوق المصطبة وانكبت على يد القس انطون وقبلتها واعطت يدها للامير حسن فقبلها وقبلته في خده . ثم تقدمتها الى القاعة واجلستها على الابسطة المرتفعة قليلاً عن الارض ، واذا بخادمة صغيرة متأنقة في هندامها دخلت بقمقم ماء الزهر وارادت ان تنثر منه على الكاهن ورفيقه فصاح فيها : لا يا بنيّه هذا يليق بالعرسان كلالامير حسن . ففجئت الفتاة . ف اشارت اليها صاحبة الدار بان تنثر منه على الامير حسن وتضعه على المنضدة ، ففعلت وجاءت بياقة من الياسمين فوضعتها في اناء ظريف بجانب القمم . ولحقها خادمة اخرى حاملة طبق

M. N

المرطبات من عصير البردقال والورد وقد سبقتها رائحة الشراب في القاعة الواسعة . ولم تقض ربع ساعة حتى جاءت خادمتان اخريان باطباق الفطور وتلتهما القهوة في ابريق من النحاس مطعم بخيوط فضية بديعة الصنع . وكانت الفناجين من الصنف نفسه كأنها اولاده . ثم قدموا للقس انطون شبقاً طويلاً . ودار الحديث بينه وبين صاحبة البيت فأخبرها بغايته من القدوم ولمح لها عن مقابلة الامير حسن لدلال صباح اليوم وما رأى فيها من الميل اليه وانه سيقصد بعد قليل الى دار والدتها برفقة الامير فيطلب له يدها ويؤمل ان يفوز بها . فشكرت له عنايته بولدها وقالت له « ان حسن واولادي هم اولادك وتربيتك يا حضرة المحترم فافعل ما تراه في مصلحتهم . ولي ميل خاص نحو الاميرة دلال لرزائتها على صغر سننها ووداعتها ورقة شعورها ورجائي ان لا تحول والدتها هذه المرة دون ميلها فتزوجها الى من لا توده كما فعلت بابنتها سعاد . فهي تعلم — وان لم تتظاهر به — ان هذه الابنة المسكينة غير مستريحة في زواجها . نعم ان زوجها يحترمها وهي قائمة بواجب الطاعة له كما يليق بابنة اصيلة مهيبة ولكن قلبها ليس له . ورباط الزواج الحب لا الاحترام »

قالت هذا ونظرت بحنو الى ولدها حسن فرأته مطرق الرأس متأثراً . فتنهبت على انها اصابته منه جرحاً وحاولت ان تداوي خطأها فاردفت قائلة « ولكن دلال اقرب الى القلب من شقيقتها . فهي ملاك مصوّر حُسنًا ولطفًا وقلبي يحدثني انها ستكون ابنتي وسأحبها من صميم قلبي وادللها دلالاً ليس بعده دلال »

قالت هذا وأشارت الى وصيقتها فجاءت ودعت السكاهن ليسترجم في غرفته . وبعد ساعة كان حسن والاب انطون امام دار عمه الامير حيدر شهاب وهي الخم من دارهم واوسع منها . واول ما اتجه نظره اليه تلك النافذة المحبوبة ولكنه لم يتمتع طويلاً بالتأمل فيها اذ تصدى لها الامير يوسف قعدان شهاب خارجاً من الدار . وهو شقيق الامير فاعور زوج سعاد . فاحس حسن لاول وهلة بانقباض لم يعلم سببه ، فنسبه الى التشابه الغريب بين هذا الامير واخيه الامير فاعور مزاحمة .

32

لكن الامير يوسف لم يلاحظ ذلك بل اسرع الى القس انطون وقبل يده بحرارة ثم التفت الى الامير حسن وصاحفه بصفاء نية . وكان الامير يوسف جميل القامة طويلها عريض المنكبين مع نعومة في بشرته اسمر اللون قوي العضل ولم يسكن في وجهه مسحة من جمال الامراء لكن ملامحه كانت تدل على الرجولية والعزم والبطولة ، مع انه لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره
فسأله القس انطون

- اي متى شرفت اعبيه يا امير يوسف

- مساء اول من امس . ارسلني الامير بشير لا بلغ مشايخ كسروان رغبته في ان يسرعوا مع كل رجالهم الى دمشق لان الامير مهمتهم كثيراً بانجاز المهمة التي كلفه الوزير اياها . وقد اصدر الامر لكل مقاطعات لبنان بالحضور وانذر من يتأخر عن اسبوع بالسخط عليه لان المعارك قريبة الوقوع . وقد سد سليمان باشا كل الطرق لئلا يبلغ الخبر يوسف باشا ، لكن اعرابياً من ديار الشام من بني صخر اعتسف الطريق اختلاساً واتى يوسف باشا فاخبره بالحملة عليه . فقام من فوره عن المزاريب ، حيث ذهب ليصد الوهابيين عن مقاطعته ، ورجع الى دمشق وتحصن فيها بالرجال والمهمات . فأشار اميرنا على الوزير سليمان باشا ان يتخذ ما يمكنه من الوسائل لحمل الدمشقيين على التخلي عن يوسف باشا وان يبلغ اعيانهم ومشايخهم الاوامر السلطانية التي تخوله الولاية على مدينتهم . ففعل الوزير حسب اشارته واستدعى وجوه الدمشقيين وقرأ عليهم الفرمان ودعاهم الى الخضوع . وكان الامير بشير حاضراً فأشار عليهم بالتسليم قائلاً « اني آخذ بيد مولاي الوزير . فان لم تطيعوا جردت عليكم عساكر الجبل كقطع الغمام ولا اتحول عنكم حتى اسلمه المدينة ولو خراباً . فان قبلتم نصيحتي فاطردوا يوسف باشا ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة . » وفيما هم في ذلك سمعوا هتافاً عظيماً وعلت اصوات التراويد وضرب البنادق فسأل سليمان باشا عن الامر فأجابوه ان الشيخ مصطفى جنبلاط عين اعيان دروز الجبل وصل باربعة آلاف

رجل جمعهم من الشوف والتمن فاستقبلهم الجيش بالفرح . فاضطرب الدمشقيون لورود
العساكر اللبنانية وطلبوا مهلة ثلاثة ايام ريثما يقنعون يوسف باشا او يتدبرون لهم
امراً ، وعادوا الى واليهم فأخبروه عن قوة الجيش اللبناني وعدده وشاروا عليه
بالتسليم . فخرق أسنانه وقال لهم : لولا هؤلاء الجبلين لعلقت رأس سليمان باشا طعاماً
للغربان . ولكنني باذن الله سأتغلب عليهم بالحيلة او بالقوة . ومهما يكن الامر فلا
اسامن المدينة الا خراباً وبعد ان ادافع عنها طائفتي فأموت تحت انقاضها . « ولكننا
واقفون ان الدمشقيين سوف لا يوافقونه على خراب مدينتهم .

فسأل القس انطون الامير يوسف

— وهل ينتظر يوسف باشا المساعدة من الخارج

— له امل في الملا اسماعيل صاحب حمص ورئيس عساكر الاكراد في سوريا
ولكنني لا اعتقد ان المذكور يتجاسر على منازلة الجيش اللبناني وقد خبر بأسه في
الماضي وذاق منه الامرين .

— ومتى تعود الى دمشق

— غداً صباحاً ليتسنى لي حضور المعارك من اولها لان شرف الجبل
متعلق عليها .

قال هذا والحماسة بادية في كلامه . فابرت اسرة القس انطون وقال له :

— بارك الله في وطنيتك يا امير يوسف . ونحن ايضاً سنذهب غداً الى الحرب
لنأخذ حصتنا من هذا الشرف ونقوم بواجبنا الوطني فهل تنتظرنا فتسير برفقتك
— سيكون لي الشرف بذلك . اني ورجالي تحت امرك . عين لي الساعة

يا محترم

— سنكون عندك الفجر لاننا سنمضي الليلة في دار الامير حمود

— لا بل انا ذاهب مع رجالي اليكم في هذا الميعاد

قال هذا واخذ بيد الاب انطون حانياً رأسه وسلم على الامير حسن وانصرف.
واذا بصاحبة الدار تهتف منتظرة على باب القاعة

— تفضل يا محترم تفضل يا امير حسن الساعة شديدة الحر

فدخل الاب انطون القاعة وفيها أثمن الرياش ولكنها مفروشة بلا ذوق فقد
كانت التحف الثمينة مكدسة هنا وهناك بغير ترتيب ولا تناسب . فانحنى الامير
حسن وقبل يد امرأة عمه فبادرها القس انطون قائلاً :

— ان الامير حسن مقصر في واجباته نحو حضرتك . نعم ان صحته لم تكن
على ما يرام ولكنه لم يجسر على الاعتذار اليك وحده فكلفني ان اصحبه لارجوك
ان تصفحي عنه .

فأجابت الاميرة بلهجة التكلف

— « كل شيء عند العطار في منه . الاحبني غصب ما في منه » ما لنا حظ مع
الامير حسن . كنت انتظره من اربعة ايام فجاء ودخل صحن الدار وعاد كالاص
مكتفياً بالسؤال عن عمه وعن سعاد كأنه غريب عن اسرائيل ، ولما اخبرته دلال
ان عمه في الحرب قفل راجعاً من دون ان يسأل عني كافي لست بصاحبة الدار ولا
امراة عمه

فلاحظ القس انطون ان الامير حسن مستقل كلامها فقاطعها قائلاً :

— هذا يدلك يا حضرة الاميرة على شدة خجله من تأخره في القيام بواجباته
وثقي ان سبب مجيئه ذلك اليوم كان للاعتذار ولكنه لم يجسر ان يدخل وحده .
فقصدي الى بتدين ليحملني على مرافقته . ولما كنت على اهبة السفر معه الى الحرب
جئنا لنقدم واجباتنا ونقف على خاطرك ونطلب ان تشرفينا بخدمة للامير حيدر .

— اشكر لحضرتك تلطفتك فقد كلفت الامير يوسف تبليغه بعض الامور . اذا
رافقونه غداً الى الشام

— نعم لقد تواعدنا معه الى الفجر

— وقد استعداد الامير حسن شجاعته فعزم على الانضمام الى الحملة ؟

— لم يفقد شجاعته قط ولكنه قد شيئاً من صحته وقد تعافى الآن فهو اول
من يقوم بواجبه . وحضرتك تعلمين ان الامير حسن ليس ممن يخافون الحرب
— والنعم منه . فقد كنت اظن انه يفضل العود الى صيدا . . .

اخذت امارات الاستياء تبدو على محيا الامير حسن لانه كان يكره امرأة عمه .
فشعر وهو يسمع كلامها القارس وتاميحاتها الثقيلة بمراجل الغضب تغلي في صدره
وكان على وشك ان يوقفها عند حدها . لكن القس انظون استدرك الامر بنظرة
اعادت اليه رشده . ثم اسرع في الجواب قائلاً :

— حضرتك اول من يعلم بالاسباب التي حملت الامير حسن على هجر دار
أبيه الى صيدا . . . وثقي انه عاد منها رجلاً وعزم على ان يبدأ بحياة جديدة تجعلك
اول من يرضى عنه وتحقق آمالنا فيه . وهو راغب في الشراح خاطرك عليه وان
تتخذيه ابناً لك .

— ربنا يخليه لاه

— وهل تمنعين ان تكوني له امّاً ثانية ؟

— لي الشرف ولكني لم افهم ما تعني بكلامك هذا

— اعني ان سمحت له بيد الاميرة دلال اصبح لك ابناً للحياة .

فأجابت ببرودة

— لنا الشرف في مصاهرة الامير حمود والامير حسن ولكني آسفة على ان دلال

موعودة للامير يوسف

فاتقض هذا الخبر على حسن كالصاعقة واشودت الدنيا في عينيه ولم يعد يعي

ما يقول . فعارضها وصوته يتهدج بالغضب *Jaqueline + David*
- ومتى خطبها الامير يوسف ؟

فاجابت الاميرة بغطرسة وكانت تلفظ كلماتها بتأن وحقد كأنها ترغب في ان
تكون كل كلمة كخنجر تغمده في قلبه :

- لم يخطبها بعد رسمياً . انما خرج الآن من عندي بعد ان نال رضي وكان قد
فاز في دمشق بعطف والدها . ويكفي ذلك لتصبح دلال له .
لخاف القس انطون ان يصدر من الامير حسن ما لا يليق به فتوسط في الامر
قائلاً :

- ان حضرتك وحضرة الامير حيدر صاحباً الكلمة في امر الاميرة دلال .
واسمحي لي بالقول ان امرها كله في يد حضرتك . ولما لم تم بعد خطبتها فأملنا ان
تراعي هذه المرة عواطف الامير حسن وحق القرابة فتفضليه على غيره
فعادت الاميرة الى ضبط نفسها واجابته :

- لم يعد الامر في طائقي لان الامير يوسف نال مني وعداً ووعد الامراء دين
- ولكن هل تأذنين لي ان اتطفل بكلمة ؟

- العفو يا حضرة الاب فانك من اهل البيت وكلنا اولادك . ولكن يصعب
علي ان تكون هذه المرة الثانية التي لا نتمكن فيها من تلبية رغبة الامير حسن ووالده
فقد ارتبطنا مع الامير يوسف ولا يليق بشرفنا اخلاف الوعد .

- لا اقول اخلاف الوعد بل تلافي ما لا تحمد عاقبته من النفور بين البيتين .
فالامير حسن ابن عم الاميرة دلال وله حق التفضيل على غيره . ثم ان دياتنا تحتم
علينا الاخذ برغبة الطرفين . وربما كانت الاميرة دلال اكثر ميلاً الى الامير حسن .
فقاطعت الاميرة بشيء من الحدة

- لا ارادة للبننت سوى ارادة والديها ولا افهم للديانة حقاً للتدخل في

الشؤون العائلية

Jaqueline?

فأجابها القس انطون بلهجة الحزم

- ان الزواج في كل الديانات عقد بين الرجل والمرأة وهذا العقد في ديانتنا لا ينقسم الا بالموت . ولما كان يوجب على الطرفين واجبات صعبة ويربطهما برباط لا يحل العر كله اصبح لكل منهما الحق في ابداء رضاه بكل حرية قبل الارتباط بهذه الواجبات والشروط . حتى ان الكنيسة منحت للطرفين الوقت الكافي ليتعارفا ويختبر الواحد اخلاق الآخر حتى اذا رأى بعد التبصر ما يوافقه اقدم على الزواج بجرية تامة ، فلا يعود له بعد ذلك عذر في الانفصال

- ومن أين تعلم حضرتك ان دلالات تفضل الامير حسن ؟

- لم اقل ذلك بل رجوتك ان تسألها لعلها تفضله فيكون للامير حسن الحق

في التقدم على الامير يوسف

فأثار هذا الكلام في نفس الاميرة المتعجرفة غضباً لم ينتظره السكاهن واجابته بوقاحة

يمكنك ان تقول هذا الكلام للفلاحين لا للامراء . فان كنا نحن الامراء نسمح لحضرتك بدخول بيوتنا والكلام في حضرتنا فلا نسمح لك ولا لكبير منك بالتدخل في شؤوننا

فلم يعد حسن يقوى على ضبط نفسه امام هذه الالهانة الذي لحقت استاذة بسببه . فقال لها بحدة

- اذا كنت يا ست لا تعترفين بحق الكلام الا للامراء فانا امير ابن امير وحفيد الامير منصور حاكم هذه البلاد . وها اني اعلن على رؤوس الملأاني لا اسمح لك ولا لاعظم منك بان يأخذ مني دلالات .

ثم بلغ به الغضب أشده فنهض واستل خنجره وهزه مهدداً :

- وانا احلف لك برأس ابي وشرف الامارة انني افضل ان اذبحها ذبحاً بهذا الخنجر واذبح نفسي فوق جثتها على ان ادع غيري يلمس ظفراً منها .

قال هذا وخرج

واراد القس انطون ان يهزم في الانصراف لللاهانة التي لحقته من الاميرة ولكنه رأى بعد هذا التهديد الذي فاه به حسن ان واجبه يقضي عليه بالتريث وتخفيف وقع هذا الكلام فتغلب على نفسه وظل جالساً . فالتفت اليه الاميرة وشفقتها ترتجفان غضباً وقالت له :

- وانت تريد ان اسلم ابنتي لهذا المجنون ؟

فاجابها القس انطون وقد استعاد هدوءه

- لو كنتُ اميراً... لتجاسرت وأجبت ان جنونه منك ويديك . ولكنني

فلاح فلا يحق لي الكلام امام الامراء .

- انا لم اقصد اهانتك بما قلته ، ولكنك اكثرت من ترديد كلمات « الحرية

والحقوق » للابناء مع اني كنت انتظر ان تؤيد بصفتك الكهنوتية حقوق الوالدين

على اولادهم في مثل هذه الظروف وخاصة امام شاب طائش كالامير حسن . ومهما

يكن من الامر فاني شديدة الرغبة في تفسير ما قلته اخيراً من ان جنون هذا الشاب

مني ويدي . فهل هو ابني وربي ؟

- لقد كان الامير حسن مع حديثه اعقل الشبان . ولكنه من الذين يندفعون

وراء غرضهم بكل قواهم العقلية والمادية . فان سهل لهم عمل الخير كانوا قديسين

وان دُفعوا الي الشر كانوا شياطين . فهم كالشلالات اذا وجهت في الطرق النافعة

ادارت الطواحين وسقت البساتين واذا اهملت او عوكست خرجت بها .

فقد اوجدت امامه اميرتين من اجل الاميرات واحسنهن تربية وخصالا .

فأحب الاميرة سعاد حباً مفرطاً ووضع فيها كل سعادة حياتة فخرمته اياها وسمحت

بها اغيره ففقد صبره وكان يققد رشده ويأتي بما لا تحمد عقباه لو لم يهجر دار ابيه

ويبتعد عنها . فهرب الى صيدا ليهرب من نفسه . وهو معذور لان الاميرة سعاد

كانت حبه الاول وقد وضع فيها كل آماله . ولما عاد من صيدا وهو يائس من

الحياة رأى الاميرة دلالاتها لئلا يخال اليها لانها صورة مصغرة للاميرة سعاد وكأنه وجد فيها سفينة النجاة فتعلق بها. وثقي انه لو لم يجد منها ميلا اليه لما هاجم بها بهذا المقدار ولما فاه بهذا التهديد الذي سمعته منه الساعة. لان المسألة لديه مسألة سعادة او شقاء الحياة كلها. فهو معذور في هذا الامر. افلا يجب علينا ان نسهل لهذا الشاب سلوك الطريق السوي التي تشرفه وتشرف الامارة عوضاً من ان ندفعه في طريق الشر والجنون. وهو من بيتكم وابنيكم. وما انا الا غريب عنكم. وانا واثق من انه سيكون من اعظم الامراء اخلاقاً ونفعاً للوطن اذا وافقته على طلبه

- من يكن طبعه مثله فلا سبيل الى اصلاحه وحضرتك تعلم ان الامير حسن قد أمعن في الفساد في صيدا وصفد فاضاف الى سوء اخلاقه عادات لا تليق بالامراء وتجعل كل والده تخاف منه على ابنتها. وهب انه يحب دلالاتها وانها توافقه على ميله فهي صغيرة لا تميز الغث من السمين وقد يكون لها في بدء الامر من اخلاص الرجال، ولكن اتضمن انه يستمر على ذلك ؟

- نعم اضمن ذلك لاني اعرف انه اذا احب أحب الى النهاية

- انت تعلم يا حضرة الاب قبل غيرك ان « ذنب الكلب وضع في القلب ار بعين يوماً فخرج منه اعوج » ومن شب على امر شاب عليه وانا كأأم وكأميرة لا يمكنني ان اسلم ابنتي النعجة الوديعه الى هذا الشاب الشرس الفاسد. اقطع الامل من هذا القبيل فاني عاملة لمصلحة ابنتي قبل كل شيء ولا يهمني ان يكون في الجبل الف متشرد مثل الامير حسن .

- فرأى الاب انطون ان لا سبيل الى اقناعها فأجابها

- ستحقق الايام ما قلته في شخصه ولو كانت نتائج رفضك الوخيمة مقصورة عليه لكان الامر. ولكنني اخاف ان تتجاوز الى العداوة بين بيتكم وبيت الامير حيدر بل والى اكثر في ذلك بمراحل. ولكنني آمل ، بعد ان يبرهن الامير حسن على حسن سلوكه في هذه الحرب، ان تغيري افكارك فيه وتراعي الظروف التي تحيط بطلبه

فاجابت الاميرة بعجرفة

— « السماء والارض يزولان وحرف واحد من كلامي لا يزول » ولا يهمني بعد
مصلحة ابنتي ارضي الامير حمود وغيره او لم يرضوا . فهم ارباب في بيوتهم وانا ربة
في بيتي .

فانصرف القس انطون دون ان يجيبها وقلبه يحدثه بشر عظيم سيشعل الجبل
كله من وراء عناد هذه المرأة

٥

المرأهنة

افاق حسن في اليوم التالي غلساً على سهيل الخيول وتراو يد الرجال فاذا برجال
الامير يوسف يحيطون بالدار . وكان الارق قد لازمه قسماً كبيراً من الليل بسبب
التهبج الذي اعتراه من محادثة امرأة عمه ولم يغمض له جفن الا في ساعة متأخرة
من الليل . فنهض مسرعاً وأطل من النافذة المشرفة على صحن الدار فرأى
القس انطون يسير الهويناً مع الامير يوسف ، فحجل من تأخره واسرع في ضم ثيابه
والتحف بعباءته وخرج اليهما وانحنى على يد الكاهن فقبلها . ثم رأى ان واجبات
الضيافة واللياقة تضطره الى مجاملة الامير يوسف مزاحمه فمد اليه يده ، فتناولها الامير
يوسف وهزها باخلاص . فسري عن الاب انطون الذي كان واجساً من تلاقي
الاميرين بعد حادثة امس . واذا بوالدة الامير حسن تطل من نافذة القاعة وتدعو
الضيفين الى تناول القهوة فاعتذر الامير يوسف بقرب بزوغ الشمس وطول المرحلة .
فبادرته صاحبة الدار بقولها :

— عهدي بالامير يوسف عارفاً بقواعد الضيافة فلا يجوز ان يترك دار الامير
حمود قبل ان « يكسر الصفرة » . فلم ير الامير يوسف بداً من مجاملتها فدخل القاعة
واكل شيئاً مما قدم له وتناول القهوة . وكانت الاميرة قد أمرت بالطعام والقهوة

ولقائف الدخان لجميع الرجال . فأكلوا ودعوا لها وللأمير حمود وللأمراء أنجاها بطول البقاء والعودة منتصرين وللدار بالعمران والافراح . وكانت والددة الأمير حسن قد علمت من القس انطون بكلما دار من الحديث مع والددة دلال فرجته سرّاً ان يراقب ابنها حسناً ويجهّد في منع كل مشاحنة بينه وبين الأمير يوسف ريثما تنتهي الحرب فيسعون في التوفيق بينهما .

وقد وقع بعد ساعة ما كان القس انطون يحشاه . وبيان ذلك ان حسناً كان غارقاً في هواجسه فترك حصانه يسبق الكاهن والأمير مع ان العرف يقضي ان يكون الكاهن في رأس القافلة وبعده الأمير يوسف لانه اقدم سنّاً من الأمير حسن . ولما فطن حسن لخطئه غاد القهقري معتذراً . فقال له الأمير يوسف مازحاً : — يسرنا يا أمير حسن ان تكون دائماً السابق .

فطن حسن انه يشير الى تأخره عن هذه الحملة . فأجابه بضحكة معنوية :

— اني السابق دائماً الى صيد الرجال والأمير يوسف واخوه السابقان الى

صيد الغزلان . . .

ففهم الأمير يوسف انه يشير الى فوزه بدلال وفوز اخيه بسعاد فأجابه :

— لو كنّا رأيناك تقدمت لتأخرنا بكل ارتياح . .

فأجابه حسن على الفور :

— اذا كنت صادقاً في كلامك فما عليك هذه المرة الا ان تتأخر .

فقال الأمير يوسف مبتسماً

— « من وضع يده على المحراث والتفت الى ورائه لا يستحق ملكوت السماء »

فرد عليه الأمير حسن بوقاحة :

— « سيصير الاولون آخرين والآخرون أولين »

— هذا لا ينطبق على امراء آل ملحم

— وسيطبقه امراء آل منصور

خفاف القس انطون ان يتحول جدال الاميرين الى مالا محمد عقباه . فتدخل في الامر وعكس كلمة امرىء القيس قائلاً :

— « الآن أمر . وغدا خمر » . ان الوطن يطلب منك في سبيله جهوداً ولا يسمح لاميرين ان يختلفا في هذا الوقت العصيب على مسائل شخصية لا بد ان تسوى بينهما بعد الحرب .

فأجابه الامير حسن :

— لا بل نسويها في اثناء الحرب . فليأخذ الامير يوسف حذره مني .

فقال له الكاهن

انا واثق من انك تقول هذا من شفيتك فقط فشرفك يمنعك من ان تطعن ابن وطنك في ظهره . فليجاهد كل منك في انهاء هذه الحرب بما يعود عليه وعلى الوطن بالفخر ولا بد ان تتفقا بعد ذلك على الامور الثانوية .

فأجابه الامير حسن

دلال قبل الوطن لان حياتي متعلقة بها .

فقال له الكاهن

لا بأس من ذلك يا بني . ولكن حياتك للوطن أولاً ...

لفظ الكاهن هذه الكلمة بحماسة اثرت في الاميرين . ثم وجه كلامه الى

حسن قائلاً :

— ومع ذلك انك لم تفقد بعد الاميرة دلال والامير يوسف لا يخطبها الا بعد

الانتهاء من الحرب ، فأمامنا متسع من الوقت للتفاهم ولنحصر الآن جهودنا في المصلحة العامة . الا ترى رأيي يا امير يوسف ؟

— نعم ولكن مهما تكن النتيجة فانا لا اتنازل عن الاميرة دلال ما دمت حياً

فقال له الامير حسن بشدة :

— اذا تريد ان تموت ؟

فأجابه الامير يوسف بهدوء وعزم :

— ان حياتي في يد الله وحده !

— وانا حياتي وموتي في يد دلال . فان ابقيتك حيًا فخذها

فظهرت دلائل الاضطراب على الامير يوسف وقبل ان يحجب تداركه القس

انظون بقوله :

ان هذا الجدال لا يليق بك يا مير حسن ولا بالامير يوسف ، لانكما اميران متحليان بالشجاعة والمروءة والوطنية . ولا يمكن احكما ان يدنس شرف الامارة والوطن فيتعدي على اخيه في اثناء الحرب التي نحن قادمون عليها . وقد قال المثل اللبناني :

« انا وختي على ابن عمي وانا وابن عمي على الغريب » واتما الآن بل كلنا امام عدو غريب يجب ان نتحد عليه لقمه ثم نتفرغ لاختلافاتنا الشخصية .

فأجابه حسن بعزم

— انني اريد ان افض هذا الخلاف قبل الحرب .

فقال له الاب انظون

— لا بأس . ولكن هل تقبل مني نصيحة اب ؟

— نعم

— وهل يسمح لي الامير يوسف برجاء ؟

— العفو يا محترم . انا ايضا ولدك

— بارك الله في كلا الاميرين وهنأني بكلا الولدين . ان رأيي ان تحكما في هذا

النزاع اميرنا المعظم . نعم ان التحدث اليه بهذه الامور في هذه الاوقات الحرجة تعد

وقاحة . ولكنني سأحمل عنكما غضبه في سبيل المصلحة العامة التي ستستفيد لاحالة

من اتفاقكما . لانه يعز علي ان شاوين من خيار امرائنا لا يتفقان في هذه الحملة على

الخروج منها بشرف

قال هذا ونظر الى الامير حسن . ففطن هذا ان الكاهن يحاول ان يعيد
قضيته الى بساط البحث ويعد العهد الذي فاز به الامير يوسف امراً يجوز الرجوع
فيه فيفتح المسألة من اولها . فأجابه الامير حسن بعد تردد قليل
- الامر امرك يا أبت

فالتفت الكاهن الى الامير يوسف فألفاه متردداً في القبول فقال له :
- واملي ان الامير يوسف لا ينجلني فيفضل المصلحة الوطنية على الشخصيات
فاجابه بعد شيء من التردد
- لا بأس ...

فسر الكاهن بهذه النتيجة وقال :
إذا تحكمان الامير بشير بهذا الخلاف ؟
فاجاب الاميران
- نعم ! ...

وكانوا قد بلغوا الى عين ماء باردة فعزموا على النزول بجانبها طلباً للراحة . ولما
ترجل الاميران أمسك القس انطون يد الامير حسن وجذبه الى الامير يوسف . ثم
قبض على يمين الامير يوسف ووضعها في يمين الامير حسن قائلاً :
كونا أخوين ! ...

وكان الامير يوسف شهماً طيب القلب كبيره مشهوراً بالشجاعة والمروءة والحلم
فانكب على يد الاب انطون وقبلها قائلاً :

بما انك يا محترم والد الاثنين فنحن أخوان .
قال هذا وارتمى على عنق الامير حسن وقبله قائلاً :

- انت أخي الصغير . وسنقاتل جنباً الى جنب
ثم هتف بحماسة

فليحي لبنان فليحي وطننا العزيز ! أنا فداؤه جسماً وقلياً .

وكان الرجال ينظرون من بعد الى هذا المشهد متعجبين دون ان يققهوا له سبباً . ولكنهم لما رأوا الاميرين يتعانقان وسمعوا الامير يوسف يهتف للوطن تحمسوا وهتفوا بصوت صم الآذان ورددته الاودية والهضاب :

— فليحي لبنان ! نحن فدى لبنان !

فتحمس الامير حسن وكان السرور قد عاد اليه لفوزه باعادة النظر في امر دلال وفتح باب الامل امامه فجدت قريحته بالازجال وأخذ ينشدها بحماسة والرجال يرددون الشطر الثاني من كل بيت . وجدوا في المسير بنشاط حتى باتوا تلك الليلة في زحله وكانوا في عصر اليوم التالي في الجيش اللبناني المعسكر في ضواحي دمشق .

وسمح الامير بشير للقس انطون وللاميرين رفيقيه بمواجهته بعد وصولهم بقليل فدخلوا عليه ورأوه جالساً مع بعض كبار الامراء اللبنانيين ورجال سليمان باشا في سرادق عظيم كأنه قاعة فسيحة من سرايه وقد زين بالرسوم الشرقية والآيات الحكيمية بارزة بخطوط بيضاء على قماش احمر زاه

وكان منظر الامير وهو في صدر السرادق يبعث في القلوب الهيبة والوقار . فقد ارخى لحيته فنزلت على صدره متجمعة وكان وميض عينيه يمر تحت حاجبيه الكثيفين كبرق متواصل بين الغيوم المتلبدة . ولما صار القس انطون امامه واراد ان ينحني لتقبيل اتمكه اخذه بيده واجلسه عن يمينه قائلاً : انك جئت في ساعة الحاجة اليك ايها المحترم . ثم سمح للاميرين بتقبيل يده فلما قرب الامير حسن منه اعطاه يده قائلاً — اهلاً وسهلاً بالابن الشاطر . لا بد ان « نذبح هذا المساء العجل المسمن لعودتك الينا سالماً »

فأجابه القس انطون

— ان الامير حسن جاء متأخراً في الساعة الحادية عشرة لكنه بانظار سعادتك سيعمل في ساعة ما كان عليه ان يعملها النهار كله . فقد تعافى باذن الله تماماً واستعاد

نشاطه وهو لم يفقد قط شجاعته ووطنيته

فالتفت الامير بشير الى القس انطون قائلاً :

— املنا ان يحقق كلامك ، ونحن اول الراضين عنه .

ولما خرج الاميران اوماً الامير بشير الى حسن اغا الحاجب ففهم الحضور ان
الامير يرغب في انصرافهم فانصرفوا وامسك الامير بشير القس انطون والاميرين
حمود وحيدر مستشاريه والمعلم نقولا الترك كاتبه واوصى الحاجب بان يمنع الدخول
اليه ثم التفت الى الكاهن وقال :

— اننا على ابواب المعارك وستقدم غداً لاحتلال المواقع المشرفة على دمشق
ونقيم عليها الحصار من كل جانب ونشدد عليها الخناق . ولا نظن ان يوسف باشا
يصبر على الحصار وربما هاجمنا قبل ان نتمكن من تطويق المدينة . وقد علمنا انه
ارسل الى المنلا اسماعيل صاحب حماه ورئيس الاكراد ان يوافيه برجاله ولكن المنلا
بعث يستفهم عن حقيقة الخلاف بينه وبين سليمان باشا ليتخذ الخطوة التي يراها في
مصلحته . ورأيي ان نبعث اليه بن يطمعه على الاوامر السلطانية التي تعلن اقامة
سليمان باشا على دمشق فيمتنع عن مساعدة يوسف باشا ولا سيما اذا علم اننا اعداؤه
لانه لا يجسر على منازلتنا . فلا يبقى امامنا من ننازله غير يوسف باشا وعساكره فقط
وليس فيهم من يحسب له حساب غير الاكراد الذين في خدمته وهم اصحاب بطش
اسكنهم مأجورون . فما رأيك يا حضرة المحترم ؟

فأجاب الكاهن :

— الرأي لسعادتك .

وكان الامير يعلم بشدة فراسة القس انطون فقال له :

— تكلم بحرية فاننا واثقون بفطنتك ووطنيتك . فتشجع الكاهن وقال :

ان رأيي سعادتك باطلاع المنلا اسماعيل على الاوامر السلطانية هو الصواب
بعينه لانه سيمتنع بلا شك عن مساعدة يوسف باشا مراعاة لهذه الاوامر وخوفاً

من بأس اللبنانيين ومعاداة حليفهم الوزير سليمان باشا

فان لم تتمكن من اقناع المنلا بالانضمام اليها حملناه على ارسال الاوامر الى الاكراد مرؤوسيه المقيمين في خدمة يوسف باشا ليتخلوا عنه . ولنا في مواطننا الياس اده مدبر المنلا وكاتبه خير مساعد على ذلك والاكراد سيأترون لا محالة بامر كبيرهم . فنشل يد يوسف باشا ونرجح بالحملة اكثر مما يمكننا ربحه بالقتال ، فضلا عن صيانة الارواح والاموال . فالحملة دائماً اقل كلفة من الحرب .

فبدت على محيا الامير بشير المهيب علامات البشر والانشراح والتفت الى الكاهن وقال :

— بارك الله فيك من مرشد متوقد الذهن يتلهب وطنية

ثم اتجه الى المعلم نقولا وقال :

— عليك يا معلم ان تكتب على الفور الى المعلم الياس اده بهذا الخصوص والحق الكتابة بصورة من الاوامر السلطانية وارسل التحارير مع علي حبق ، فهو اسرع من الغزال في هذه السهول . ولنتريث في القتال ريثما يعود الرسول فتمتلك بورقة ما قيمته مهج الرجال .

ولما خلا الديوان من رجال المشورة تأخر القس انطون عنهم قليلا . فادرك الامير ان لديه امراً خاصاً يريد ان يبيده سرّاً فبادره بالسؤال :

— هل من حاجة نقضها لعزيزنا المحترم ؟

فانحنى الاب انطون شاكراً وقال :

ان حاجتي في سبيل الوطن . نعم ان ما اطلب عرضه على سعادتك يتعلق بمشكلة شخصية . . . بامر زواج احد الامراء . ولكن حلها بفطنة سعادتك يتلافى خطراً وطنياً ويكسبنا اميراً مقداماً أجبرته الحوادث على الخروج عن الطريق السوي . فقد قصدني الامير حسن حمود الى بتدين لاطلب له يد الاميرة دلال ابنة عمه وسعادتك تعلم ان رفض تزويجه بشقيقة الاميرة سعاد القاه في الطريق الملتوية التي

التي سار بها السنتين الاخيرتين . فتدخلت في الامر وذهبت بصحبته الى والدة الاميرة دلال وحادثتها برغبته فأجابتي « ان الاميرة موعودة للامير يوسف قعدان » ولكن ليس هناك خطبة رسمية . وقد كاد الامير حسن يفقد رشده في هذه الصدمة الثانية واخاف ان لا يملك نفسه هذه المرة فيقدم على ما لا تحمد مغيبته ويفتح شقة خلاف عظيمة بين اهله وبيت الامير حيدر عمه وآل ملحم وآل منصور . ونحن الآن احوج الى الاتحاد من كل وقت آخر . فرأيت ان اسمي لحل الاميرين حسن ويوسف على تحكيم سعادتك في هذا الامر . فالاميرة دلال على ما ظهر لي تميل الى الامير حسن ولكن والديها يحتاجان بعهدهما للامير يوسف . ويعتقد الامير حسن ان رفضهما ناتج هذه المرة ايضاً عن نية سيئة وتعمد الاهانة وهو مصمم على ان يفوز بالاميرة دلال مهما كلفه الامر .

فقطب الامير بشير حاجبيه فحقى على القس انطون ما تنطق به عيناه . وبعد

هنية قال :

— سننظر في الامر غداً . بلغ الاميرين حسن ويوسف ان يكونا عندي الساعة الثانية صباحاً . والآن اذهب حضرتك فاسترح .

وفي صباح اليوم التالي في الساعة المعينة وقف الشaban متأدبين بحضرة الامير

بشير ليسمعا منه الحكم على قليهما . فبش الامير فيهما وقال : +

— انني اعد نفسي كوالد لكل منكما وخاطر اهلكما عزيز علي . فلا يمكنني

تفضيل الواحد على الآخر في هذا الامر . فالاميرة دلال ستكون لمن يستحقها منكما في هذه الحرب . وقد جعلت نفسي الحكم في من يكون اكثر استحقاقاً لها .

فلم يحسر الاميران على الاعتراض . فتقدم الامير يوسف وقبل يد الامير بشير

قائلاً :

- انا وأخي الامير حسن نتشرف بان تسكون والدنا وقاضينا .

فالتفت الامير بشير الى حسن وسأله :

- وهل انت موافق على هذا الكلام ؟

- انا قابل سلفاً حكم سعادتك على قلبي بشرط ان تكلفني اصعب مهمة في

هذه الحرب . فان قضيتها ربحت دلال . وان مت فديتها بنفسى .

٦

الجالسوس

وفي صباح اليوم التالي علم الامير بشير ان يوسف باشا عدل عن انتظار نجدة المنلا اسمعيل ونوى مباغته اعدائه ، فامر الامير باحتلال قريتي الجديدة وداريا في جوار دمشق ليقف في وجه عساكر يوسف باشا اذا خرجت ويطوق المدينة اذا لم تخرج . فوضع في المقدمة فرقة الدالاتية التابعة لجيش حليفه سليمان باشا ووراءها فرقة من مشاة اللبنانيين بقيادة الامير يوسف قعدان لانه لم يكن يأمن ثبات هؤلاء الأجورين . ثم رتب فرسان الامير حمود والد حسن في الجناح الايمن لشدازر المشاة والهجوم عند الحاجة وصف بقية الامراء والمشايخ النصارى والدروز والمتاول مع رجالهم في نقط مختلفة واحتفظ لنفسه بالقيادة العامة . فباتوا تلك الليلة على حذر وقد نشروا العسس في كل جهة . ولم ينبليج الفجر حتى قامت صيحة هائلة واذا بفرقة من الفرسان الاكراد الملتحقين بجيش يوسف باشا تدهام الدالاتية وتلقي الرعب في صفوفهم . فحاول الدالاتية في بدء الامر الثبات لكن الاكراد تسكثروا عليهم فاطلقوا سيقانهم

للريح

وكان الامير حمود قد كلف ولده حسن قيادة فرقة الفرسان الخاصة به فنهض حسن بعيد نصف الليل وأعد رجاله للقتال . فلما سمع الضجة في معسكر الدالاتية انقض بفرسانه لنجدتهم ولما رأهم منهزمين صاح برجاله : سيوفكم يا شباب . عليكم بهؤلاء الانذال . وما هي الا ثواني قصيرة حتى التف اللبنانيون بالهاربين وامنعوا فيهم قتلاً . واذا برئيسهم يعترض لهم فهجم الامير حسن عليه وأطار رأسه وأوغل مع فرسانه في صفوفهم حتى اعادهم على اعقابهم . فانبرت له خيالة الاكراد فاشتبك اللبنانيون معهم بالسيوف والرماح وعلا الصياح وصم صهيل الخيل الآذان واخذت الرؤوس تنطير والخيول تتخطب بدمائها والجثث تنكدس واختلط الحابل بالنابل . فصرخ الامير حسن برجاله عليكم بالقاووق ، وهي قبعة عالية يلبسها الاكراد ، فكان اللبنانيون كلما صادفوا قاووقاً أطاروا رأس صاحبه . لكن الاكراد تكاثفوا عليهم . فكانوا كلما ازاحوا صفاً منهم ظهرت وراءه صفوف حتى كلوا وايقنوا بالهلاك . واذا بهتاف يصم الآذان واسم « جنبلاط » يهز الجو كقصف الرعد وما هي الا ثانية واختبا حتى انقض فرسان الدروز بقيادة الشيخ مصطفى جنبلاط على الاكراد كما ينقض البواشق على الفريسة . فانتعش فرسان الامير حسن وتكاثفوا مع فرسان الدروز وهجموا هجمة صادقة اعادت الاكراد القهقري . ولكنهم لم يخطوا مثني ذراع حتى شاهدوا جيش يوسف باشا قادماً عليهم كالغمام الزاحف في السهل . فخرقهم وتقدم بقدم ثابتة الى الائمة التي يحتلها مشاة اللبنانيين . فكان اصطدام هائل . لان يوسف باشا رأى ان يقذف في هذه المباغثة بكل قواته قبل ان يتمكن اللبنانيون من تحصين مراكزهم وكاد ينجح في ازاحتهم عنها لولا ان الامير يوسف تمس وقذف برجاله على الهاجمين فاصطدم بهم ولكنه لم يرحزهم وما عم ان احس باستظهارهم عليه فتقهقر . وركب الدمشقيون في اقفية رجاله فاضاع اللبنانيون الطريق التي جاؤوا منها ووجدوا انفسهم امام خندق كبير جاف حفره

اهل دمشق لصد غارات البدو عن مدينتهم . فرأى الامير يوسف انه واقع لا محالة بالاسر مع رجاله فخطرت له في هذا المأزق فكرة حوّل الخطر الى فوز مبین . فصاح برجاله : قبوركم في هذا الخندق ! فاحتلوه واحتفوا فيه عن ابصار مطاردتهم . فهتف بهم ثانياً : صوبوا بنادقكم الى العدو وانتظروا الاشارة ، ففعلوا . ولما صار العدو على مسافة نحو ثلاثين ذراعاً امرهم فاطلقوا بنادقهم دفعة واحدة فحصدت الصف الاول منه . وتابعوا اطلاقها فكانت صفوف الهاجين تسقط الواحد تلو الآخر كأن منجلاً هائلاً يمحدهم حتى هلك منهم عدد كبير . فكّر رئيس الاكراد بفرسانه وحاول تطويق الخندق واذا بالامير حيدر الشهابي والامير جهجاه حروفش المتوالي ينقضان عليهم برجالهما ويشتتاّنهم . فحف الضغط عن الامير حسن والشيخ جنبلاط ولم يعد المشاة الدمشقيون يتحملون نيران الخندق فارتدوا بانتظام . وكان الامير بشير يراقب من اكمة عالية كل هذه الحركات ويديرها بمهارة ورباطة جأش فرأى الفرصة سانحة فنادى بالهجوم العام واستل سيفه وصاح : اليّ يا اسود الجبل ! فدبت الحماسة في صدورهم وتحركوا فرسانهم ومشاتهم كتلة واحدة . فكانت ساعة رهيبية زحفت فيها هذه القوة الهائلة كالاعصار فجرفت رجال يوسف باشا وطارد الفرسان اللبنانيون فلولهم كما تطارد النمر فرائسها حتى اوصلوهم الى ابواب دمشق .

وفي مساء ذلك اليوم عاد علي حبق حاملاً كتاباً من المنلا اسمعيل الى القواد الاكراد ينهاهم فيه عن مساعدة يوسف باشا وعصيان اوامر الدولة . فجمع الامير بشير وسليمان باشا مجلس الشورى السري واطلعه على فحوى الكتاب فاستبشر الجميع بالنصر . ثم قال الامير بشير : ولكن علينا ايصال هذه الكتابة الى قواد الاكراد واقناعهم بالتخلي عن يوسف باشا وهذا ليس بالامر الهين . فانتبهز القس انطون الفرصة وقال للامير بشير :

— نحن في حاجة الى رجل جري وذو حيلة ليوصل هذا الكتاب الى قواد الاكراد ويفاوضهم لمصلحتنا ويطلعنا على حركات يوسف باشا ونياته وقد

طلب الامير حسن حمود من سعادتك تكليفه اصعب مهمة في هذه الحرب فهلا ترى ان هذا وقته .

فأجابه الامير بشير

- في الحقيقة ان الامير حسن برهن في هذا اليوم عن شجاعة نادرة ولكننا ما زلنا في حاجة الى هذه الشجاعة

- ان المهمة تحتاج الى شجاعة وحيلة واسعة ويتوقف على نجاحها ربح هذه الحرب دون ان تسفك قطرة من دماء رجائنا . فان كان الامير حمود لا يمانع فاني ارى الامير حسن اهلاً لها .

فقال الامير حمود

- نحن جميعاً للوطن العزيز وانا شاكر لسعادة الامير ولحضرة المحترم حسن ظنهما بولدي ومستعد لان افدي الوطن به اذا كان في حاجة اليه . ولي في دمشق صديق حميم هو احمد بك المورة لي من اكابر الاكراد واملي وطيد انه سيبدل جهده في مصلحتنا نظراً للمعروف الذي اولاه اياه الامير بشير بناءً على توسطي .
فالتفت الامير اليه وقال له

- بارك الله في وطنيتك وفي اولادك يا مير حمود . وساكف الامير حسن المهمة ولكن لا يسعني في هذا المجلس الا ان اوجه الشناء الى الامير يوسف قعدان الذي ربح معركة اليوم لثباته في الخندق .

وبعد بضع دقائق وقف حسن في حضرة الامير بشير وكان المجلس قد فض ولم يبق منه سوى الاب انطون . فالتفت الامير الى حسن وقال له :

- لقد برهنت اليوم عن شجاعة ووطنية فحققت مقال الاب انطون فيك ، ولكنني لا اخفي عنك ان حوادث معركة اليوم اتاحت للامير يوسف مزاحمك الفرصة لان ينال عليك قصب السبق . فلولا تحصنه في الخندق لفشلت في هجومك ورجحت كفة يوسف باشا علينا . فقد كانت القوات المتجمعة عليك فوق طاقة رجالك .

لذلك رأيت من العدل ان اتيح لك الفرصة للتفوق على الامير يوسف واكلفك مهمة ايصال هذا التحرير الى قواد الاكراد وحملهم على التخلي عن يوسف باشا . ويمكنك ان تتفق معهم على المكافأة . لان هؤلاء العساكر يباعون ويشرون كالسلع وهم لمن زاد لهم الاجرة . ولا تنس ان تطلعنا على كل ما ينويه يوسف باشا وعلى حالة المدينة والجيش المعنوية . وتزود من والدك بالمعلومات والتوصيات لاحمد بك المورة لي احد كبار الاكراد في خدمة يوسف باشا .

فانحنى الامير حسن وقبل يد الامير بشير قائلاً : ~~فانحنى~~

— اني فدى سعادتك وفدى الوطن والاميرة دلال . فعذني بيدها ان نجيحت فتضاعف قواي

اقسم لك بشرف الامارة ان الاميرة دلال تكون لك ان فزت بهذه المهمة .

فلم يجب الامير حسن بشيء . واكتفى بقوله للامير

— اسمح لي بالتحرير .

فدفعه الامير اليه . فأخذه ووضع في عبه . ثم جئنا امام الاب انطون وقال

— زودني بركتك يا أبت

فوضع القس انطون يديه على رأس الامير حسن وقال له بصوت يرتعش حنائاً

— الرب معك يا بني . وكن رجلاً كما اعهد فيك

وبعد مرور ساعتين على هذا الحديث كان ثلاثة من اللبنانيين متزيين بزى

فلاحى دمشق ينسلون بين البساتين المحيطة بالفيحاء . وكانت انوار القمر الفضية تقاطع

باخيلتهم ظلال الاشجار وتزيد اشباحهم طولاً . وقد اوصى الامير حسن ، الذي كان

واحداً منهم ، رفيقه فهداً وسليماً ان لا يستعملوا الغدارة بل الخنجر او السيف عند

الضرورة القصوى . وكان فهد الحاي يتقدم الثلاثة وهو من دروز ضواحي حاب

الذين اختلفوا مع جيرانهم فأنجدهم الامير بشير وجاء بهم الى لبنان ووزعهم على

مقاطعات الشوف . وكان شاباً رشيق الحركة ثابت الجنان واسع الحيلة عارفاً بازقة

دمشق وضواحيها كأنها قرية . فلما بلغوا الى احد ابواب هذه البساتين الخشبية عالجهم فلم يفتح قساق سور الجنينة المبني باللبن وقفز الى الزاروب الفاصل بين البساتين . واذا بجندي يتصدى له ويضع فتحة بندقيته بين عينيه منتهراً : من الرجل ؟ وما هي الاثانية واختها حتى كان خنجر الامير حسن في ظهر الجندي . فخر صريعاً يعرج كالثور . ولم يخط الجواسيس بضع خطوات في ذلك الزاروب حتى انبرت لهم فرقة من الجنود سمعت خرير رفيقهم فهرولت شاهرة السيوف . وفي اقل من دقيقة احاطت بحسن ورفيقه كالسوار بالمعصم . فتقدم حسن الى كبيرهم وبادره بلهجة دمشقية :

— عجل ياسيدي فقد هرب الجيليون من هذا الزاروب بعد ان قتلوا الحارس . قال هذا وأسرع امامهم كمن يدهم على القنلة . فجازت الحيلة على الجنود وتبعوهم وما وصلوا الى احدى زوايا الزواير حتى كان اللبنانيون قد اختفوا الواحد تلو الآخر دون ان يشعر الجنود بهم . ودخل الثلاثة المدينة من زقاق مهجور وقصدوا توأيت بيت احمد بك الموره لي ووقفوا امام بوابة كبيرة تحرسها ثلة من الاكراد . فاعترض لهم كبيرهم وسألهم عن غرضهم . فانفرد به حسن وهمس في اذنه اسم المنلا اسمعيل . فتفرس الرجل جيداً بحسن وقال له اتبعني وطرق البوابة طرقاً مصطلحاً عليه مع من في الداخل ففتحت منها طاقة صغيرة مشبكة بالحديد واطل منها رجل كثر اللحية اخذ يتكلم مع كبير الحرس وطال حديثهما حتى مل الامير حسن . فصاح به

Yacheline

— ادع سيدك الى هنا

وبينما هم في اللغط والكلام اذ ظهر وراء الطاقة نور ضئيل وشيخ في الخمسين من عمره . وسأل عن القادمين . فتقدم الامير حسن اليه وسأله تحريراً من والده مختوماً بالشمع الاحمر فتفحصه جيداً على ضوء السراج ثم امر بفتح الباب الصغير وهو جزء من البوابة وقبل ان يهيم الجواسيس بالدخول قبض عليهم الجنود . فعفروا انهم

الفرقة التي التقوا بها بعد قتلهم للجندي . فتوسط كبير الحرس في امرهم واراد تخليصهم فلم يفلح . فخرج صاحب الدار اليهم وسأل رئيس الجنود .

— ما شأنك وهؤلاء ؟

فأجابه

— هؤلاء جواسيس من الاعداء دخلوا المدينة خلسة وقتلوا الحارس وهو اخي فانتهره الشيخ قائلاً :

— بل هؤلاء من فلاحى بستاني .

قال هذا وامر رجاله فهجموا على الجنود وما زالوا يتجاذبون الجواسيس حتى خلعوهم وادخلوهم الدار ، وكانت فسيحة الارعاء . فلما صاروا في داخلها فض الشيخ كتاب الامير حمود وقرأه على ضوء القمر . ثم اشار الى اللبنانيين فاحقوا به وصعدوا السلم الموصل الى الطبة الاولى . ولما توسطوا الرواق اوماً الشيخ الى الامير حسن بالحق به وحده فتأخر فهد وسليم ودخل حسن قاعة واسعة مظلمة ولم يلبث الخدم ان جاؤوا بالشموع الكثيرة فضاءت على رحبها وظهر رياسها الفاخر ولمعت الاسلحة المعلقة على جدرانها . وبعد ان اتسكأ الشيخ على وسادة واجلس ضيفه قال له باشا :

— اهلاً وسهلاً بابن صديقنا العزيز . هات كتاب المنلا . فاخرجه من عبه ودفعه الى الآغا فتناوله وخص ختمه جيداً ثم قبله ووضع على رأسه احتراماً ولم يفرضه لانه باسم رئيس الاغوات . ثم احضرت القهوة فقدم منها فنجاناً الى الامير حسن واحسنى هو ايضاً واحداً . ولما انتهى التفت الى ضيفه قائلاً :

— الآن وقد شربت قهوتي اصبح لي الحق بسؤالك عن اسمك . فاني اعرف جيداً الامير حمود واولاده وقد نزلت مع اسرتي ضيفاً عليهم شهرين كاملين فأيهم انت ؟

— انا الامير حسن ثالث انجاله وقد كنت حين تشريفك عندنا غائباً في صيدا

— انعم واكرم الان تذكرتك . وكيف حال حضرة الامير حمود والسيدة

الاميرة والدتك وهل جميع اخوتك في الحملة ؟

- نعم

- اذا انت الامير حسن ابن صاحب الفضل علي وسبب نعمتي . فقد كان مولاي المنلا اسمعيل قد غضب علي فاضطرت الى الهرب بأسرتي وقصدت والدك لاني علمت انه اكبر المقرين الى سعادة الامير بشير فانزلني مع زوجتي وابنتي في داركم على الرحب والسعة وما زال بالامير بشير حتى حمله على استرضاء المنلا عني فاوصى بي آغتتنا في دمشق فاعادني الى وظيفتي .

وكان حسن يعلم كل ذلك من والدته ويعلم فوق ذلك ان لاهم بك ابنة مشهورة بالجمال والذكاء وقع ابن المنلا في حبها وطلبها من والدها . فوعده بها خوفاً من سيده . لكن الصبية كانت غير راغبة فيه لشراسة اخلاقه وسوء سمعته ولميلها الى ابن عم لها . ولما كانت الفتاة وحيدة لاهم بك لم يرض ان يرغمها على التزوج بابن المنلا . فاعتذر اليه . فخيره المنلا بين تزويج ابنته لولده أو طرده من الخدمة . وكانت امرأة احمد بك من افصح النساء لساناً وارجحهن عقلاً واشرف الاكراد اصلاً ، فذهبت بنفسها لمواجهة المنلا واطلاعه على حقيقة الامر فاعترض لها ابنه واسمها كلاماً لم تطق السكوت عليه . فوبخته على وقاحته وسلوكه وعادت فاطمت زوجها على ما جرى فهر بابنتهما من حمص ليلاً ولجأ الى الامير حمود والد الامير حسن . وكانت والدته حسن قد اعلمته ان زوجة الكردي من الطبييات الساحرات وقدأت بالعجائب في اثناء مكوثها في دارهم وان لابنتها ، فضلاً عن جمالها الفتان ، صوتاً عذباً بطرب الجماد ويسحر الالباب وهي بارعة ايضاً بضرب العود تلعب بأوتاره كاتلعب باوتار القلوب . فاصبح الامير حسن مشتاقاً الى رؤية هاتين المرأتين . ولكنه طرد هذا الفكر الشيطاني من رأسه منذ كراً المهمة التي أخذها على عاتقه وعليها يتعلق سعادة وطنه وقلبه . فسأل احمد بيك :

-- وما العمل لا يصلح هذا التحرير الى سعادة الآغا الكبير؟

- هذا من شأني . ان علي واجباً اقوم به نحو الامير بشير ووالدك . فاسترح الليلة
هنا مع رفيقك وأنا ذاهب في الحال الى الآغا . لاني لا اخفي عنك ان يوسف
باشا عازم على الخروج اليكم بعد نصف الليل بحيشه كله ليباغتكم ويفوز عليكم .
والقواد الاكراد مجتمعون الآن في دار الآغا للمفاوضة في الامر وهم في انتظاري .
وسبب اجتماعهم الاتفاق على خطة يتخذونها مع يوسف باشا قبل الهجوم ليضمنوا
مرتباتهم ومرتبات جيشهم . لان الباشا قد تأخر عن دفع رواتب الجيش منذ حملته
على الوهابيين ولسكنه وعد القواد بعد انتصاره على سليمان باشا والبنانيين ان يدفع
لهم هذه الرواتب مرة ونصف مرة . ومع ذلك فانا واثق بانهم اذا علموا باوامر الدولة
ضد يوسف باشا وضمنوا دفع رواتبهم لا يلبثون ان ينقلبوا عليه . فقال له حسن :

- اني رسول الامير بشير اليكم وانا اعاهدكم على دفع هذه الرواتب مضاعفة
ومستعد ان اكتب لكم عهداً بذلك . وانت تعلم ان الامير بشير اذا وعد انجز .

- سافتح اذاً الآغا في هذا الامر ايضاً بعد ان اسلمه كتاب المنلا

قال هذا واستدعى الخادم فجاءه بعباءته وسلاحه فشك الخنجر في وسطه وتقلد
السيف والتحف بالعباءة . ثم امر رئيس الخنصيان أن يستدعي زوجته . ولما ذهب الخادم
التفت حسن الى الكردي وقال له :

- الا يحسن بنا ان نبعث الى الامير بشير رسولاً يحذر من مباغثة يوسف باشا؟
فضرب الكردي على جبهته قائلاً :

- اي وايم الحق هذا أولى من كل امر آخر . سأوفد في الحال من يقوم بهذه المهمة .
فخاف حسن من فوات الوقت وفشل الرسول او خيائته فقال للكردي
- لا تزعج رجالك فعندي من يقوم بهذا الامر .

واستدعى الامير حسن فهداً فوقفت بين يديه بعد ان سلم على احمد بك
فقال له :

هذا وقتك يا فهد . سيخرج يوسف باشا بجيشه بعد ساعتين ليياغت رجالنا .
فاذهب في الحال واعلم الامير بشير ليحطاط نلامر .

ولم ينته حسن من كلامه حتى صار فهد على الباب . فناداه قائلاً :

— وكيف تخرج من المدينة ؟

فأجابه :

— سأفكر في ذلك في الطريق

فقال له احمد بك :

— اسمع يا بني . اذا اعترض لك الحرس فقل لهم « المنلا اسمعيل » فيعرفون
انك من اتباعنا ويدعونك تخرج وتدخل الليلة . اذهب بسلام ونحن في انتظارك
وفياهم في هذا الحديث اذ دخلت زوجة احمد بك سافرة وهي امرأة في
الاربعين من عمرها ممشوقة . القدر شقيقة الحركة عليها سماء الجمال والنبيل . فقال
لها زوجها :

— هذا الامير حسن ابن الامير حمود صاحب الفضل علينا . فخبئي في دار
الحريم اكراماً لوالديه وانا ذاهب في مهمة وساعود بعد ساعة .

فلم يرق حسن هذا الكلام وقال للبيك :

— اني اشكر لك ولحضرة الخاتم ضيافتكما وثقتكما ولكن هذا وقت العمل ولا
يليق بي الاختباء في بيت الحريم . فأرجوك ان تأخذني معك الى الآغا فاتحدث معه
ومع بقية القواد بشأن مهمتي .

فاجابه احمد بك

— كنت افضل ان تدعني اقوم وحدي بهذا المسعى

فتدخلت زوجته في الحديث وكانت مطلعة على اسرار زوجها ومشتركة معه دائماً في الرأي في شؤون البيت والدولة وكانت قد سمعت من وراء الستار كلما جرى بين الاغا وحسن من الحديث . فقالت لزوجها :

- ان رأي الامير حسن حسن فاستصحبك له أضمن لاقتناع جماعتنا والاتفاق معهم على رواتب الجنود المتأخرة . والاذهب سعيكم سدى :

فأجابها احمد بك

- رأيك سديد فليصحبني الى الاغا ولكني لا أضمن عاقبة مواجهته لبقية الاغوات واخشى افتضاح امره وامرنا .

- لا بأس من ذلك . فقابله بالآغا ثم أعدده بنفسك الى هنا . وانا انتظره واهي . له غرفة الايوان . وواجه وحدك بقية الاغوات واجتهد في اقناعهم .

٧

الفداء

وفي اقل من ربع ساعة كان احمد بك والامير حسن في قاعة الآغا داود ، كبير قواد الاكراد ، وكان الرجل على اهبة الخروج لتهيئة الهجوم الليلي . فانتظراه في السلامك الى ان دخل عليهما ووقف امام حسن يتأمله . وكان طويل القامة عريض المنكبين كبير الشاربين مقتولهما تدل ملامحه على الجرأة والقسوة والعدر . فلم يترك له احمد بك فرصة للسؤال وبادره بقوله .

- ان رفيقي ابن اعز الاصدقاء واكبر الرجال مروءة في لبنان . وقد تطوع لاىصال كتاب باسم سعادتك بعث به مولانا اسمعيل . وهو مستعد للاتفاق معنا على ما فيه مصلحتنا في هذه الحرب . لان السلطان أيده الله قد ولى سليمان باشا هذه الديار وعزل يوسف باشا فلا يروق مولانا المنلا ان نحارب مع اعداء الدولة ونؤيد عصيانهم .

قال هذا وناولہ الکتاب . ففحص الآغا بتدقيق ختم الشمع المبصوم به ثم فضہ وقرأه بصعوبة لانه لم يكن يحسن القراءة . وظل صامتاً . فكانت هناك دقيقة ظنہا حسن دهرآ . ثم التفت الى احمد بك قائلاً :

— ان سعادة المنلا له الرأي والامر ولكنه غير مطلع على حقيقة حالنا مع يوسف باشا . وانت تعلم ان علائف الجند متأخرة ثلاثه اشهر واننا نحارب لاخذ حقوقنا منه والا ارتد الجند علينا .

فتشجع الامير حسن وكان عالماً ان هؤلاء المسترزقة يحاربون مع من يجزل لهم العطاء فقال للآغا :

— ان في خزائن سليمان باشا اضعاف ما عند يوسف باشا من المال فخذق الآغا في حسن مبتسماً في هزء وقال له :

— ان المال موجود عند كلا الوزيرين ولكن من يضمن لنا قبضه فأجابه حسن بعزم

— انا رسول الامير بشير اليكم ووكله في مفاوضاتكم . فأعاهدكم على دفع مرتبات الجند عن اربعة اشهر وعلى دفع مرتبات الاغوات مضاعفة . وانا ضامن عهدي برأسي وسابقي رهناً عندكم الى ان تستوفوا المال حتى آخر باره . فاستدرك احمد بك وقال للآغا :

— ان الامير بشير ارسل لنا ابن عمه نفسه للاتفاق معنا . فحضرته الامير حسن ابن الامير حمود ابن الامير منصور الشهابي حاكم لبنان سابقاً وابن عم الامير بشير الحاكم الآن . وقد اضافني والده مع اسرتي شهرين كاملين واصلاح شأني مع مولانا المنلا اسمعيل واعادني الى وظيفتي بتوسط الامير بشير .

— فالتفت الآغا الى الامير حسن وقال :

— اننا لا نشق بأحد من وزراء الدولة فهم لا يراعون لاحد عهداً . اما الامير بشير فهو مثال الصدق والمروءة فان كتبت عنه لنا عهداً بما عرضته علينا احجمنا عن

مساعدة يوسف باشا

فأجابه الأمير حسن

- علي بالقلم والدواة

وكانت هناك على المنضدة دواة من نحاس لها ذيل مستطيل لحفظ الأقلام
حفرت فيها الرسوم والآيات بخيوط فضية أنيقة . فجاءه أحمد بك بها وأخرج من
ذيلها قلمًا من قصب الغزار وناولوه قرطاسًا فيكتب العهد ووقعه وسلمه إلى الآغا وهو
يعلم أنه يخاطر بهذا العهد بحياته . فقرأه الآغا بتمعن ثم ناوله إلى أحمد بك وقال :

- اضمن

فوقعه أحمد بك بختمه وأعادته إلى الآغا فوضعه في عبه ونادى الحاجب فوقف
بين يديه في أقل من طرفة عين كأنه كان مخنفيًا وراءهم . فقال له

- إلى بمرزوق وبشر

فلم تمض بضعة ثوان حتى كان الساعيان منتصبين أمام الآغا فقال لهما
- اذهبا إلى الآغوات فاعلماهم أن لا خروج الليلة وأن يوافوني صباحًا إلى هنا .
وانتما عالمان بكلمة الليلة

ثم التفت إلى أحمد بك وقال له :

- اسرع إلى حسن آغا واعلمه بما اتفقنا عليه . وكان عندي الآن مع كافة
الآغوات . ولا بأس من أن تصحب معك الأمير حسن لأن عهد الأمراء عندنا مقدس
واصدق من عهد الوزراء .

فتمتسك أحمد بك الصعداء لسماحه للأمير حسن بالخروج وكان خائفًا أن يبقيه
عنده رهنًا فينال له سوء من غدر الآغا . فخرجا وكان القمر قد توسط كبد السماء وبسط
اشعته بسخاء على الفيحاء فتفاضت سطوحها وسطعت مآذنها واستنارت أزقتها
وزواربها وملعت حراب الجنود المحتشدين في صحون قناعاتهم وأمام سرايات آغواتهم
وقوادهم وهم على أهبة الخروج لمباغطة المحاصرين . ولما مر أمام دار أحمد بك تعجب

حسن من خلوها من الجند . وعلم منه انهم التحقوا برفقائهم استعداداً للهجوم المتفق عليه . فقال احمد بك لحسن

- ساذب وحدي الى حسن آغا وهو وكيل خرج الاكراد وصديقي الحميم .
فاصعد انت واسترح قليلا واخبر زوجتي اني ساعود بعد قليل .

قال هذا وقرع الباب قرعاً خاصاً ففتحت النافذة ثم الباب الصغير ودخل حسن
فرأى سليم ينتظره على السلم . فیتقدم وقال لحسن

- كنت في قلق شديد على سيدي . وكنت على وشك الخروج للتفتيش عليه

لولا ان مولانا منعتني

فتبسم حسن وقال له :

- اذهب الآن فاسترح الى حين الحاجة اليك واذا عاد فهدأ يقظني

- واين غرفة سيدي

- لا اعلم . وساخبرك

ولما صعدا السلم وجدا آغا الحرم ينتظر في الرواق فقال لحسن :

- ان الخاتم في انتظارك في القاعة

فترك الامير سليماً وتوجه الى البهو فرأى زوجة احمد بك جالسة تشرب

النارجيلة فبادرته قائلة :

- خير ان شاء الله يا امير حسن

- لا يجد من يدخل داركم سوى الخير . فقد اتفقنا

قال هذا وقص عليها تفصيل الاتفاق . فكانت تصغي اليه دون ان تنبث بينت

شفة . ولما انتهى من حديثه قالت له

- بارك الله في همك يا بني .

ثم نهضت وقادته بنفسها الى غرفة ملاصقة للحرم لها باب على الايوان ونافذة

مغطاة بالمشربية

فاستلقى حسن على الفراش ولم يخلع ثيابه .
واكتفى بوضع الغدادة والسيف بقرب الوسادة . ونام نوماً عميقاً حلم في اثناؤه
انه في سراي السلطان وان الهوانم يقمن بحراسته .

وبينا كان غائصاً في احلامه اللذيذة اذ سمع صوت فتاة تناديه ففتح عينيه ورأى
على ضوء القمر الداخل في الغرفة صبية من أجل ما ابصرت عيناه وقد انحنت عليه
وتوردت وجنتاها واسترسل شعرها وظهر عنقها المرمرى لانها كانت بثياب النوم .
وكانت تحديق به بعينها النجلاوين مستغيثة . فبهت ولم يفهم كلامها وحسبها احدى
الهوانم التي راهن في الحلم . واذا بالفتاة قد قبضت على يده وجذبتة وقالت له بلمهة:

- وحياة شبابك يا مير حسن . قم واسرع . لقد قبضوا على والدي !
فتمض حسن وسألها وهو لا يعي ما يقول والصبية ماسكة بيده تجذبه :
- من هو والدك ؟

- احمد بك الموره لي الذي انت في داره . اسرع وحياة والدتك سامي !
وكان اسم والدته العزيزة أطار احلامه . فسألها :
- وأين هو !

- في الطريق تعال فانظر

فتمخاض حسن من يدها واسرع الى الخارج ثم تذكر سلاحه فسألها
- اين سيفي

واذا بالفتاة تسلمه سيفه فاستله ورمى بالعمد وهرب الى السلم . فلحقته الفتاة
وصاحت به

- تعال هنا . وقادته الى نافذة صغيرة مظلة على الحارة وشارت بيدها قائلة
- لقد ساقوه في هذه الطريق . ثم قادته الى السلم فتركها وقفز بضع قفزات فاصبح
في صحن الدار . ثم تذكر خادمه فقال لها

- عليّ بسليم . فليلحقني

وهرول الى الباب فشاهد زوجة احمد بك تصيح في الخدم :

- يا اندال . الحقوه . خلصوا سيدكم .

فر حسن من امامها كالسهم . فصاحت به :

- وحياة والدك يامير !

واذا بابنها تقتحم الباب لتلحق به فامسكتها والتهوا وأعادتها واسرعت فايقتظت

سليماً .

ركض حسن في الطريق فلم يجد فيها انسياً ولما بلغ الى آخرها سمع نباح كلاب فاتجه نحوها وابصر على ضوء القمر الكامل جوقة من الجنود في هرج ومرج فلاحقهم وعرف انهم القابضون على احمد بك وكانوا عشرة يجرونه والرئيس وراءهم يستحثهم ويحرق بأسنانه ويسب احمد بك بكلام بذي . فاقترب منه حسن وأطار رأسه بالسيف . فالتفت الجند فاذا باثنين من رفاقهم يتخبطان بدمائهما فأخذوا حذرهم وهجموا على حسن بالخنجر فرمى واحداً منهم . وكان حسن من اشهر لاعبي السيف في لبنان لا تخيب له ضربة . فأخذ يدافع عن نفسه ضارباً بسيفه ذات اليمين وذات الشمال الى ان احاط به الجند من كل جانب فأيقن بالهلاك . واذا باحمد بك يصيح به :

- «ظهرك والجدار» . ففهم حسن مراده وفتح له طريقاً الى بوابة حديدية كانت

هناك ووقف فوق عتبتها فحى ظهره وجزأ من جسمه في دائرة الباب واخذ يهوي بسيفه على كل من يقترب منه فلم يبق من الجنود غير اربعة واذا بسليم يرمي احدثهم بطعنة خنجر ويغمده في خاصرة الآخر . فتناول احد الجنديين غدارته وأفرغها في صدر حسن فخر صريعاً وكان على وشك ان يفرغ فيه طلقاً آخر لولا ان قبض عليه سليم بيد من حديد وانتزع منه الغدارة وأفرغها في ظهره واسرع الى حسن فوجده جثة هامدة . فارتقى عليه يقبله ويبكي . وكان الجندي الباقي حياً قد هرب فقال احمد

بك لسليم

- فك وثاقي لنحمله الى الدار

فبادر سليم وقطع الحبال بختنجره وحمل الامير حسن الى الدار . ولما بلغا به الطبقة العليا ألقيا صاحبة الدار وأبنتها في انتظارهم فالتفت احمد بك الى زوجته وقال لها :

- لقد فداننا بحياته

واراد احمد بيك ان يعيده الى الغرفة التي كان نائماً فيها فقالت له زوجته - لا بل نخبئه عندنا « فادخلوه غرفة ابنتها ومددوه على فراشها . فأسرعت والدتها وجست نبض الجريح ووضعت اذنهما على قلبه . وكانت ابنتها تجهمش في البكاء فقالت لها :

- حي حي لا تخافي

ثم كشفت عن صدره فرأت الرصاصة قد مرت بين الضلوع اليمنى وخرجت من تحت الكتف . فبهتت

- سليم ان شاء الله . سليم . هات العقاقير يا بني . « فأسرعت خديجة وجاءتها بصندوق صغير تكسدت فيه العقاقير والمرام فغسلت والدتها الجرح وضمدته وقالت لزوجها :

- علي باحمد لان العقاقير نفدت مني في هذه الحرب

فلما وقف الخادم بين يديها قالت له :

- اسرع كالطير الى الشيخ . تولي المغربي فايقظه وجثني بهذه العقاقير

قالت هذا وكتبت له اسماء بعض الادوية . فتعلويع سليم وقال

- لاذهبن معه فنعود سريعاً . وان افق سيدي فاخبروه بسبب غيابي .

فالقي احمد بك يده على كتف سليم وقال له :

- يا لك من مخلص نحن مديونون لك بالحياة بعد الامير حسن وسيعلم سيدك

انك مخلصه . وسينال هؤلاء اللئام جزاء خيانتهم . فقد وشوا بي الى يوسف باشا فارس

من يقبض علي فادركوني امام باب داري . ولكن الباشا لا يصبح حياً ان شاء الله

سار سليم بصحبة الكردي ولم تمض دقائق حتى صارا في قلب المدينة . واذا بالناس في هرج ومرج والجنود يتراكضون ويصيحون بعضهم ببعض . فتعجبا من ذلك وظنا ان اللبنانيين قد دخلوا المدينة . ثم صادف احمد صديقاً له من بني جنسه مسرعاً فامسكه وسأله :

— ما الامر ؟

— ما الامر ؟ يا حيف عليك وهل لم تدر بما جرى ؟ تعال معي فقد جئت في الوقت المناسب ، ربما قسم الله لك شيئاً مما بقي . فقد انتقض زعمائنا على يوسف باشا ورفضوا مهاجمة الاعداء ليلاً لأنهم علموا ان في نيته ان يباغت المحاصرين ، فان ظفروا بهم عاد الى الولاية ودفع علائف العسكر والا لاذ بالفرار . فرفض الاغاوات الخروج قبل ان يقبضوا رواتبهم ورواتب جنودهم ، فجمع الباشا تحفه وحمل خزينته وحاول ان يهرب ، فهجم القواد على الخزينة ونهبوها . وخاف الباشا ان يفتكوا به فهرب ببعض رجاله . ونحن الآن ذاهبون الى نهب سرايه واختطاف حريمه . ولي بينهن حورية لم يخلق الله لها اختاً في الجمال ، كنت متفقاً معها على الهرب بعد نهاية الحرب وقبض الراتب المتأخر . فهيا بنا ادلك على رفيقة لها اقل منها جمالاً واكثر مالاً ، عندها من الحلى ما يغنيك العمر كله . . .

٨

المكافأة

ظل النهب والفوضى طول الليل في المدينة . فقد اطلق الجند أيديهم في التعدي على الأموال والاعراض وحرمة البيوت حتى ضج الدمشقيون واستولى عليهم الرعب ، فلم يروا مخرجاً من هذه الحال سوى باستنجد المحاصرين . فاسرع اعيانهم وألفوا وفداً قابل في الغلس سليمان باشا والامير بشير وبشرهما بهرب يوسف باشا ورجاهما

بالحاح دخول المدينة واعادة الامن الى نصابه . فامر الوزير الحجاب ان يعلنوا بشري الانتصار، فعلا الهتاف ودوى الرصاص ودقت الطبول وعزفت الزمور وتحرك الجيش وانتظم صفوفها يتقدمها القواد والألوية . وبعد ساعة كان سليمان باشا داخل عاصمة الامويين على رأس جيشه والجيش اللبناني حليفه ، وعن يمينه الامير بشير ووراءها فرقة المشاة اللبنانيين يقودها الامير يوسف قعدان . وقد نالت هذا الشرف بناء على اوامر سليمان باشا نفسه، الذي أراد بهذه المناسبة اظهار اعجابه بالجيش اللبناني وبهذه الفرقة الباسلة التي كان لها الشأن الاكبر في رد هجوم العدو . فحققت الراية اللبنانية البيضاء في طليعة الرايات وازدحم الدمشقيون لمشاهدة الموكب ولا سيما الجند اللبناني الذي طبق ذكره الشرق بشدة بأسه وحسن بلائه في الحروب . ولما شاهدوا حسن نظامه وما كان يتجلى في رجاله من قوة العضل والبطولة والشجاعة اخذوا يهتفون له بحماسة ، واستقبلته النساء بالزغاريد والرياحين وماء الورد .

وكانت سراي المدينة مزدانة بالاعلام واغصان الاشجار فدخلها الوزير بصحبة الامير بشير وقواد الجيشين . ولما استوى في القاعة الكبيرة اجلس الامير عن يمينه ، فتحولت الى الامير انظار المشايخ والعلماء والوجوه والقواد معجبين بهيئته . وظن بعضهم انه الوزير لان سليمان باشا كان بجانبه كالصعلوك . ثم أشار الوزير بيده الى الحاضرين فساد السكوت واشترأبت الاعناق، فأمر بتلاوة فرمان السلطاني الذي يخوله تولي حكم المدينة . فانحنى الجميع اجلاً وتَعْظيماً وكبروا وهللا . فقال لهم الوزير مشيراً الى الامير « هذا الامير بشير الشهابي ، من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن اخص رجال الدولة واعزهم لدى مولانا السلطان . فقد لبى أوامره وجمع هذا الجيش العروم لتعزيز كلمته وتنفيذ رغبته . لذلك قد وليناه الحكم فيكم فاليه ترجعون في أغراضكم . وكل ما يقرره مقرر عندنا »

قال هذا وتنحى فأقبل الاعيان على الامير يهنئونه ويقدمون له الطاعة . فعين على بعلبك الامير جهجاه الحرفوش المتوالي، وارسل متساعاً جديداً الى اللاذقية ، واقام

مصطفى بربر على طرابلس ما عدا القلعة . ورأى الوزير ان يكافئ الامير فسمى ولده
الامير قاسم والياً لجبيل وملحقاتها وخص الامير خليلاً ولده الآخر بولاية البقاع .
وما عثم ان وصل المنلا اسماعيل صاحب حمه مصحوباً بدادود بك رئيس
الاغوات الاكراد فقدموا التعظيم لسليمان باشا وهذا الامير بشير بالنصر وبالمكانة التي
حازها لدى الوزير والدولة، فرحب الامير بشير بهما وأثنى على المنلا اسماعيل لمؤازرته
جيش الدولة وأبقاه حاكماً على حمه و اضاف حمص الى ولايته . فشكر شكراً جزيلاً
ثم قال له :

— ان لدادود بك رئيس الاغوات غرضاً لدى سعادتك .

فتقدم رئيس الاكراد وأبرز الصك الذي كتبه له الامير حسن وفيه العهد
بالنيابة عن الامير بشير بدفع رواتب الاغوات المتأخرة مضاعفة ورواتب اربعة اشهر
للجنود الاكراد . فقرأه الامير بشير ملياً وسأله عن حكاية هذا العهد فأخبره الكردي
بما دار في الليلة البارحة بينه وبين الامير حسن من الحديث وبتفاهلها، بعد توقيع هذا
العهد ، على الانضمام الى دعوة المحاصرين ورفض الخروج عليهم ، ثم انتقاضهم على
يوسف باشا وارغامه على الفرار من دمشق . فأجابته الامير بشير :

— على الرأس والعين . سابر بهذا العهد كأنه عهدي لاني فوضت الى الامير
حسن الاتفاق معكم بالنيابة عني . عليّ بالامير .

فدعا رئيس الاكراد احد غلمانه وامره قائلاً :

— اسرع الى دار احمد آغا الموره لي وقل له ان الامير بشير آفي حاجة اليك

الساعة أنت وضيقتك الامير حسن .

فذهب الغلام وعاد بعد نصف ساعة، وكان رئيس الاكراد ما زال في حضرة

الامير بشير ، فسلم وقال :

— ان احمد آغا يعتذر الى سعادة الامير وسعادتك عن الحضور لان الامير

حسن مجروح جرحاً بليغاً وهو في حالة النزع .

وكان الامير حمود والد الامير حسن سامعاً فاسقط في يده وسأل الغلام

— وكيف كان ذلك ؟

وكان الغلام فصيح اللسان فأجابه

— وشى عدو الى يوسف باشا باحمد آغا بأنه يأوي جواسيس لبنانيين ويتآمر عليه مع رؤساء الاكراد . فأرسل يوسف باشا شرذمة من الجنود فقبضوا عليه امام داره وساقوه اليه مكبلاً . وكانت الدار قد خلت من رجال احمد آغا لانضمامهم الى الجيش استعداداً لمهاجمة المحاصرين ايلاً ، فاسرع الامير حسن الى نجدة ورأى عشرة جنود يقودونه . فهجم على العشرة معاً وهوى بسيفه ثماني مرات فجندل منهم ثمانية الا ان التاسع رماه بغدارته فصرعه .

وكان الامير بشير يصغي الى الغلام مسروراً وكلما تقدم هذا في الحديث اشرب عبقة واتسع حاجباه وانتفخ صدره . ولما انتهى هتف بحماسة :

— لاشلت يمينك يا امير حسن . هذه مروءة الامراء وبسالة اللبنانيين

ثم التفت الى الامير حمود وكان مطرق الرأس كئيباً فقال له على مسمع الحاضرين :

— نحن جميعاً خفرون بولدك ومهشوك بهذا المجد الذي ناله بيتكم به . فقد ربح الامير حسن الحرب بجرأته وذكائه اكثر من ربحنا لها بحيوشنا .

فأجابه الامير حمود

— انا واولادي فدى الوطن وسعادتك . وقد فداننا الامير حسن بدمه

فتذكر الامير بشير كلمة حسن الاخيرة وأجابه :

— نعم لقد فداننا وفداها . . .

ففهم الامير حمود مراده وانصرف مع الغلام لمشاهدة ابنه . ولما دخل الدار اسرع احمد آغا للقائه وارتقى على عنقه معزياً مخففاً عنه وقائلاً :

— لا بأس على الامير حسن

فلم يحبه الامير حمود من شدة التأثر ولحقه الى الردهة فوجد على بابها خادميه

Georgette

فهداً وسليماً ينتحبان . فسألها

- وهل مات ؟

فندارك احمد آغا قائلاً :

- حي ان شاء الله ، سليم ان شاء الله

ولما دخل الامير حمود غرفة ولده شاهد القس انطون أمام فراشه يصلي وقد طأطأ رأسه حزناً وتساقطت الدموع على كتابه . وكانت زوجة احمد آغا جالسة الى الجانب الآخر من الفراش وهي سافرة تجس نبض حسن . فلما اقترب الامير حمود نظرت اليه وأشارت بالسكوت وهزت رأسها علامة التطمين ، وسمع الامير حمود من وراء الستار صوت فتاة تنتحب فعلم ان ولده في خطر ، فخرج والعبوات تكاد تنحقه . ولما جلس في القاعة رجا احمد آغا ان يأتيه بأمر الأطباء والجراحين فأجابه الآغا برنة العجب

- ان الخاتم امهر الأطباء وأحن الامهات . والامير حسن ولدنا وقد فدانا بدمه

Macheline

فنحن نقديه بمهجنا .

ظل الامير حسن يعالج سكرات الموت خمسة عشر يوماً والاب انطون وزوجة احمد آغا وابنتها ملازمين له ليلاً ونهاراً . وقد عفاه الامير بشير من حضور جلسات الديوان ليتسنى له ملازمة الامير حسن ومراعاة لِعَواطف مشايخ دمشق لئلا يتغصوا من وجود هذا الكاهن بينهم . ومع ان الغرفة التي كان فيها الامير حسن من داخل الحرم فقد أذن له احمد آغا في الخروج والدخول والمكوث ما شاء من الوقت ، واستأنست به زوجته وسمحت لابنتها خديجة بالظهور امامه سافرة لتثبته من فضيلته وطيب عنصره . ولم تكن الفتاة تقوى على الابتعاد عن الامير الجريح فكانت تخدمه بارتياح ، ولا تخجل من التصريح باعجابها به وعطفها عليه . وما لبثت ان تملك قلبها عاطفة شديدة حولت اعجابها الى حب خالص رأت فيه والدتها نتيجة طبيعية لمعرفة الجميل والحنان ، وهي فتاة في الثامنة عشرة خالية القلب رقيقة سريرة

التأثر . فكانت تلازم الامير نهاراً وعيناها لا تفارقه لحظة ، وتلازمه ليلاً في احلامها الذهبية . ولما تحققت والدتها من أمرها لم تقف حاجزاً امام هذه العاطفة الشريفة بل أخذت تمنى لو شفي جريحها لتزف اليه ابنتها ووحيدها عربوناً لمعرفة الجميل نحوه ونحو بيته فتصبح خديجة اميرة لبنانية — والامارة في لبنان هي الكل في الكل — وترتبط علاقات الاسرتين برباط القرابة والمصاحبة . وكانت الخاتمة تجهل كغيرها ان اغلب الامراء الشهابيين قد انتحلوا الدين المسيحي ، لانهم لم يكونوا يتظاهرون به . وشعرت الفتاة بموافقة والدتها فاسترسلت في حبها واخذت تجاهد في الوصول الى قلب الامير ، وللمرأة مهارة غريزية تضمن لها النجاح في اكتساب ميل الرجل ، ولا سيما اذا كان في حالة الامير حسن وامامها متسع من الوقت لاحاطته بظواهر اللطف والعطف وابعاده عن كل تأثير خارجي .

وكان كلما تقدم حسن الى الصحة قويت في قلب الفتاة الآمال فنبشها اليه بأنواع شتى تحت ظواهر السرور بشفائه . ولم ينتبه حسن في بدء الامر الى ماترمني اليه فكان يعزوه الى الشفقة الطبيعية في المرأة . ولكنه لم يخف على القس انطون ، وقد خبر القلوب ، ما كان يتدفق من وجه الفتاة وحديثها ، فبدأ يعذرها ثم اخذ يتخوف من ان تتوصل الى اجتذاب قلب الامير ومحو ذكرى الاميرة دلالة خطيئته . وكان يردد في قلبه المثل اللبناني القائل : « بعيد عن العين بعيد عن القلب » ويعلم ما لجمال هذه الفتاة الساحر ونضارتها الغضة وحديثها الرقيق وموانستها للجريخ وتفننها في التودد اليه من التأثير فيه وهو في دور النقة عائد الى الحياة فاتح قلبه من جديد للآمال ، مطلق لخيالته العنان لتسرح بانسراح في فضاء العمر الطويل المقنوح بابه امامه . فصمم الكاهن على رفع الامير بأقرب وقت من هذا المحيط الخطر ، واخذ يسعى الى ذلك خثيثاً . وفي صباح أحد الايام دخل الاب انطون على حسن مفتر الثغر مشرق الوجه ، فلاحظ حسن ذلك وانتظر خبراً ساراً وحقق الى استاذة سائلاً بعينيه فبادره الكاهن . — ان سعادة الامير بشير يهدي اليك سلامه الخاص وسيشرف بعد قليل الدار

لعيادتك ، وبصحبتة الامراء والدك وعمك والامير يوسف قعدان . ولم يتم الكاهن حديثه حتى دوت اصوات الأهازيج في الحلي الصامت فاهتزت جوانبه . فقال القس انطون لحسن :

- هؤلاء رجالك يا امير حسن جاؤوا يهشونك بالسلامة .

وعلا صياح الرجال وكانوا يهتفون :

- فليحي اميرنا الكبير . فليحي حاكمنا الامير بشير . فليحي بطلنا الامير حسن وعند نهاية كل هتاف كان ينطلق البارود وتقرع الطبول وتترج تراويد الرجال بأصوات الزمور القربية ، حتى خيل للسامعين ان اركان الحلي الصغير تتداعى . ثم ساد سكوت عميق عقبه وقع حوافر الفرسان . فأخذ الحاضرون يتهايمسون بينهم قائلين :

- الامير بشير ! الامير بشير !

واذا بالامير بشير نفسه يصعد السلم المؤدي الى الطبقة العليا من الدار يتقدمه احمد آغا ويتبعه الامراء حمود والد الامير حسن والامير حيدر عمه والامراء اسعد ومنصور ومراد اخوته ووراءهم الامير يوسف قعدان مزاحمه على يد الاميرة دلال ، وجمهور غفير من الاعيان وضباط فرقة الامير حسن . فاندفعت الزغاريد من نوافذ الدار ونثرت الورود فوق رؤوس القادمين حتى دخل الامير الردهة وجلس في صدرها ، وكانت روائح العطور والبخور وماء الورد قد ملأت جوانبها الواسعة . وبعد ان قدمت له ولحاشيته القهوة والاراكيل والغلايين الطويلة نهض قائلاً :

- علينا واجب تتممه نحو الامير حسن .

وأشار الى الامراء حمود وحيدر ويوسف قعدان فتبعوه الى غرفة الامير حسن . فلما رآهم حسن داخلين عليه استوى على فراشه وهم بالنهوض ، فوقفه الامير بشير بإشارة من يده ، وذهب بنفسه اليه واعطاه يده لتقبيلها قائلاً :

- العوافي يا بني . العوافي يا امير حسن . لقد كان سروري وسرور الامراء والجيش بتمافيكم معادلاً لسرورنا بالاعمال الباهرة التي أتيتها في هذه الحرب . فنحن

نهنتك ونهني . انفسنا بك

فرفع الامير حسن عينيه اليه شاكرًا متمنًا بعض كلمات ، فقاطعه الامير بشير قائلاً :
- ومكافأة لك وتشجيعاً لغيرك قد جعلناك مع الامير يوسف قعدان رئيسي
حراسنا . وستكونان كلاكما ولدين خاصين لي اعتمد عليكما في اكبر مهمات الوطن .
وقد حكمنا لك بريح الرهان من الامير يوسف قعدان فتنازل لك عن الاميرة دلال .
وساكون انا اشيبتيك والست الكبيرة اشيبنة الاميرة دلال . اليس كذلك يا امير يوسف ؟
فلم يكن من الامير يوسف الا ان تقدم من الامير حسن وانحنى عليه وعانقه قائلاً :
- بارك الله لك يا أخي الصغير بالاميرة دلال . لقد وهبتك اياها فوهبتك من هو
أعز من نفسي !

فرفع الاب انطون يديه فوق رأسي الاميرين هاتفاً :
- الرب يبارككما يا بطلين . كونا دائماً أخوين وساعدي لبنان القويين .
فدوى المكان بالهتاف وطفح السرور من قلب الامير حسن وشعر بقوة غريبة
قد دبّت في جسمه فنهض من فراشه هاتفاً :
- هيا بنا الى اعييه !
ولكنه لم يكذب يخطو خطوتين حتى خارت قواه وهوى كالسكران . فخرجت
زوجة احمد آغا من خبائها كالج البصر وهرولت نحوه صائحة :
- لقد قتلتم الولد !

وتلقت حسن بيديها فارقتي بين ذراعيها كالملت . فقطب الامير بشير حاجبيه
الكبيرين وخرج دون ان ينبث ببنت شفة . وانتظر في القاعة مع الامراء نتيجة هذا
العارض . ولم يبرح الدار حتى طمنه احمد آغا ان الحادث بسيط وان الامير حسن قد
اغمي عليه من شدة التأثر .

والحقيقة ان جرحه انفتح وعقب ذلك حمى شديدة جعلت حياته في خطر عظيم

لم يهدأ بال الامير بشير بعد هذا الحادث . فقد نشبت ثورة في دمشق على أثر تعيين سليمان باشا لرجل يدعى الكنج أحمد متسلماً عليها . كان المذكور تحصيلاً داراً في عهد يوسف باشا وعامل الاهالي بالقسوة والظلم ، فكرهوه . لكنه رشا المنلا اسماعيل بالمال فتوسط له لدى الوزير فأعاده الى وظيفته . ولما علم الدمشقيون بذلك طلبوا من الوزير عزله فلم يلبهم ، فثار ثائرم وعمدوا الى العصيان وهجموا على دار المتسلم ليمتسكوا به ، فحال الجند اللبناني دون بغيتهم . فتفاقت الثورة واندلعت نيرانها في كل انحاء المدينة وانضمت عساكر يوسف باشا من غير الاكراد الى الثوار . فاحتفى المتسلم في القلعة وأغلق ابوابها وصوب المدافع على المدينة . فاضطرب سليمان باشا واستدعى الامير بشير على عجل وطلب اليه قمع الثورة بقوة الجيش اللبناني بحجة انه لا يمكنه تقض عهده للكنج أحمد . فأجابه الامير :

— لا يليق بنا ان نحارب الاهالي ونفتك بهم وقد انقضوا على يوسف باشا اظلم المتسلم وانحازوا الينا وساعدونا على طرده . ورأيي ان ننصفهم ونرضي الكنج أحمد بوظيفة اخرى في غير دمشق . فعوض الوزير التدبير الى الامير فعزل الكنج أحمد وعينه متسلماً على القدس واقام مكانه درويش آغا الذي كان محبوباً من الدمشقيين . وعين أحمد آغا الموره لي وكيلاً له مكافأة له على مساعدته للجيش اللبناني وعنايته بالامير حسن .

ثم رأى الامير في بقاء عساكر يوسف باشا في المدينة خطراً دائماً عليها وعلى سلامة الدولة فدفع لهم رواتبهم مع علاوة شهر آخر ودفع لرؤسائهم ضعف ما يستحقون ، حسب عهد الامير حسن لكبيرهم ، وفرقهم مع جنودهم على المدن الواقعة في حكم سليمان باشا ، فارضاهم وأخضعهم وأمن شرهم . فهدأت الثورة وخلا بال الوزير من هذه المتاعب واستتب له الامر في كل انحاء ولايته من حدود حلب حتى وادي النيل .

ولما كان كل ذلك عائداً الى مساعدة الامير بشير له وحسن تدبيره ، خلع الوزير عليه وعلى اولاده وقواد جيشه من امراء ومشايخ الخلع الفاخرة واطلق يده في حكم ولاية لبنان وخفف عنه الاموال ، فكان للبنان فترة من الراحة والرفاهية والعز لم يسبق له الفوز بها منذ عهد الامير فخر الدين المعني الكبير . وعظم شأن الامير بشير في لبنان وسوريا ومصر وأخذ الحكم يخطبون وده . واصبح اسم الجيش اللبناني مرادفاً لاعظم قوة في سوريا .

ولما سمع محمد علي باشا وزير مصر بهذه الامور رأى في الامير بشير اكبر مساعد له على تدخله في شؤون سوريا واقوى حليف له على الدولة العثمانية المتفككة الاوصال ، فصمم على اكتساب صداقته وبعث اليه بالتهاني الودية والهدايا الثمينة .

٩

الاغواء

ظل الامير حسن شهرين كاملين يصارع الموت . وكثيراً ما كان يغيب عن الحسن وتحمله مخيلته الى عالم الاحلام والاهوام ، فتظهر له ، وهو تائه في ظلمات الغيبوبة ، فتاة محاطة بهالة من نور فضي تبتسم له . وما لبث ان تحقق ان شخص هذه الرؤية المحبوبة كثير الشبه بالصورة التي رآها في نافذة دار عمه ، لكنها هيولية . فهل امامه ملاك بلا جسم ، أم صورة محمولة على أجنحة الخيلة ، أم هي دلال بعينها وقد نحل عودها ورقت ملاحمها وباتت سقيمة حزناً عليه . فقد كانت ابتساماتها تشف عن كآبة عميقة تحاول اخفائها عنه . والغريب من أمرها انها مع كثرة ترددها عليه ، لانها كانت موضوع كل احلامه ، وتوددها اليه ، لان نظراتها كانت تعبر عن تعلقها الشديد به ، كانت ملازمة السكوت . ومع ان حسن كان لايفتر عن توجيه الاسئلة العديدة اليها عن حالها وثباتها على عهده ويدعوها مراراً للاقتراب منه ليشكر لها اخلاصها ، فلم تكن تجيبه بسوى ابتسامة في طرفها شيء من المرارة . فهل اصبحت

خطيبته في عالم الاموات فتَهبط من سماءها اعيادته ومواسماته ؟

وفي أحد الايام وقد زادت هواجسه واشتد اضطرابه من احلام مزعجة ظهرت له بابتسامتها الملائكية ، فزال انقباضه وانشرح صدره وأخذ يشكو اليها ثقل المرض الذي يقمده عن اللحاق بها ، فرمقته بنظرة وداد أثارت في صدره اضطراباً وشوقاً ، فبسط اليها ذراعيه متوسلاً ان تدنونه فيعانقها ويبثها أحاديث كثيرة لذينة أعدها لها في اثناء مرضه الطويل ، وقد حفرها على صفحات قلبه لانه لا يتمكن من الكتابة . لكن دلال ظلت صامته بعيدة ورهقته بنظرة يأس كأنها لم تعد من الاحياء . فزاد هذا المنظر في حسرته وأخذ يصيح بلهفة :

- دلال ! دلال ! لم هذا النفور ، لم تعامليني بالصد والسكوت ؟ انك لتزيدين آلامي ألماً وضيقاً ضيقاً ! ألم تصبحي خطيبي شرعاً ؟ ألم أسجل حي لك بدمي ؟ أو أن روحك فاضت حزناً علي ؟ دلال ! دلال !...

واذا بيد ناعمة تمر على جبينه الملتهب ، وتمسح العرق المتصبب منه ، وصوت خافت يحاذيه برقة :

- حسن ! حسن ! لم هذا الاضطراب . لم هذا العذاب ؟...

فتفتح عينيه وشاهد خديجه فوق رأسه ، وقد انحنى عليه وبلت خديه بدموعها . فهدأ روعه ، وجال بنظرة تائهة في الغرفة الواسعة . ثم سألها :

- أين هي ؟ لم تهرب مني ؟ هل ماتت ؟
فأجابته الفتاة وقد تهدج صوتها تأثراً :

- أنا خديجة يا حسن . لا أحد هنا غيري . دلال حية لكنها بعيدة من هنا . اما أنا فلا افارقك لحظة ، ولن افارقك الى الابد . حذق لي . ارفعني انا ايضاً بنظرة عطف ، اجعل لي أنا ايضاً مكاناً صغيراً في فكرك وقلبك ...

فحول حسن نظره الى الصبية وهو لا يفقه ماتقول . فعادت تناجيه .

- ألم تشعر يا حسن بلهفتي غليك وتألبي لحالك . انظر كيف شحب وجهي

وغارت عيناى من البكاء والسهر عليك . ألا تكافئني على كل ذلك بنظرة واحدة ودودة ؟ ...

تأثر حسن من لهجة هذا العتاب ولاحظ للمرة الاولى في عيني ممرضته الدعاوين العميقتين شيئاً غريباً يجذب به . فقد كانتا ملتصقتين بعينييه تعبران عن حنان وألم وهيام لم يقرأه من قبل في عيني فتاة غيرها . فتسربت الى صدره ، وهو في هذه الحال من الضيق والعزلة ، عاطفة الشفقة ومعرفة الجميل نحو هذه الفتاة المخلصة وأجابها بلطف :

— انى شاكر لك يا خديجة ، من صميم جوارحي ، مؤاساتك وخدماتك . وثقي انى لا انسى ، ماحييت ، افضالك على .

— لا فضل لى عليك ، يا عزيزى حسن ، ولا أروم منك سوى العطف على واشراكى بجزء صغير من حبك للدلال . أنا لا أرمى الى نزعها من قلبك ولا التقدم عليها ، فهي خطيبتك واحق منى بمودتك والسابقة الى احتلال فؤادك . هنيئاً لها ... آه ، كنت ، قبل دخول الامير بشير الى هذه الغرفة ، اغل النفس بأن أكون لك دون سواى . ولكنى سمعت العهد الذى قطعه لك الامير على دلال ، وشاهدت فعل اسمها فيك . كنت لا تقوى على الحراك ، فتهضمت بأعجوبة لتالحق بها ... أسمعت فى تلك اللحظة صوت شاة تدبج ؟ نعم ، لقد شعرت حينئذ ان خنجرأ يغمد فى قلبى . فصحت من الألم وأغني على مثلك ... ولما افقت تجلى لى مصابى بكل روعته وكدت افتقد رشدى فأهجر هذه الغرفة ودارأبى ومدينيتى وأهيم على وجهى فى الصحراء ، لعلى أساك ... ولكن والدى خفت عني وأكدت لى انه لا يقوى شاب على صد فتاة مخلصة له شغوفة به ، وانى سأحل يوماً فى قلبك بقرب دلال وأشاطرها قسماً صغيراً من حبك . هنا بها ، يا حسن ، فهى أميرة وابنة عمك ورببة صباك وصاحبة عهدك ومالكه فؤادك . لكن لا تنسنى أنا ، فانى لا أقل عنها تعلقاً بك وأملاً فيك ، ولا تقدر قوة فى الارض على ان تقطع أمراس هذا التعلق

والأمل ... أنا لا أطمع في أن أكون شريكة حياتك الوحيدة ، بل حسبي أن
أكون خادمة لك ولها ، فأنتى بقربك ماحيت ...

وقفت خديجة عند هذه الكلمة وقد تغلب عليها الحزن وخنقتها العبرات ،
فانفض صدرها وسالت دموعها على جبين حسن . فرق لها وتحقق انها واقعة في
هواه ، وجاهلة انه مسيحي لا يجوز له ان يقسم قلبه بين زوجتين . انما لم يقو على
صدمها بتلك الحقيقة بل تركها معلقة بحبال الامل . ولا سيما انه في مرضه وعزلته كان
في حاجة قصوى الى عذراء حنون تؤانس وحشته وتبته عواطف رقيقة تنزل على
جرحه كالبلسم . فلما شاهدها تجهمش في البكاء وأحس بدموعها السخينة تتساقط على
جبينه ، دبت في صدره عاطفة غريبة قوية فيها شيء من الشفقة وكثير من ميل فجائي ،
فطوق نحرها بذراعه ومسح دموعها بقبليتين حاريتين وقال لها :

— لا تبكي يا خديجة ، فانا ، انا ، ولا يورثك تعلقك بي سوى الحسرة
الابدية . أبقى نحيبك الى بعد موتى ولا تنسيني . بل رافقي جثتي الى اعيمه وشاركي
دلال ووالدي في حزنهما علي . فانام في قبوري متعزياً اني ربحت في حياتي عطف
فتاتين جميلتين ، رقيقتي الشعور ، شديدي الاخلاص ...

وقبل ان يتم حسن كلامه قاطعه صوت الخاتم ، التي اقتربت منه وقالت له
بحنان الوالدة :

— لا بأس عليك ، يا بني ، فقد زال عنك الخطر وتمائلت الى الشفاء . وان
شاء الله لا ينقضى هذا الاسبوع حتى تنهض معافى ، فتبدأ حياة جديدة هنيئة
تنسيك كل هذه الآلام .

ثم التفتت الى ابنتها وقالت لها :

— ولكن يا خديجة لا تقلقي بالله بالشكوى ، ودعي قلبه مستريحاً ، لان عليه ،
بعد الله ، المعول في شفائه .

لم تلك خديجه صادقة لما طلبت من حسن أن يشطر قلبه بينها وبين دلال .
 فالمرأة تجود باعز ما لديها وتضحيه الاحبها ، فلا ترضاه الا كاملاً . هي تخضع بارتياح
 لمن تهواه ، وقد تجد لذة في استبداده بها ، وترضى بان يستذلها ويستعبد لها على شرط
 ان تستعبد هي قلبه . ومع انانيتها وضعفها قد طبعت في معالجة ميل الرجل على
 الخداعة والتدليس . فان اخلصت له الحب لا تصدقه دائماً القول .

تحققت خديجه من هوس حسن بدلال ان هذه منسيطرة على قلبه تسيطر تماماً
 وانها وحدها تشغل افكاره وعواطفه ، فكانت كلما أملت في اجتذابه اليها وهو في حالة
 الوعي ، عادت فخبرت بمرارة ، وهو في حالة الغيوبة ، ان حبه لابنة عمه ما زال
 صحيحاً . فتظاهرت في بدء الامر انها راضية بان تكون الثانية في حبه اي ضرة ، فلا
 يأخذ حذره منها ، ويتركها تحتل قلبه رويداً رويداً ، حتى اذا تمكنت منه أزاحت
 مزاحمتها . فجاهدت اولاً في اكتساب عطفه من باب معرفة الجليل لما تبديه نحوه من
 الخدمة والملازمة في مرضه . ولما بكت وحملة الشفقة على ان ينفحها بقبلتين في عينيها
 انعمشت آمالها وأبدت من السرور بهذا الفوز الجزئي ما جعل حسن يعتقد بحسن
 طويتها

وفي اوائل الربيع من تلك السنة دخل حسن في دور النقة ، واحمد آغا الموردي
 ما زال منهمكاً بمهام وظيفته الجديدة ، لا يأوي الى البيت الا في الليل . فأتسع المجال
 لزوجته وابنتها للتأمر على اكتساب قلب الامير حسن ، ومن وراء ذلك اكتساب
 القابله وثروته ومنزلة اسرته ، فعمدتا الى تمثيل رواية توقعه في شراك خديجه فتصبح
 زوجته واميرة شهاية لها جاه الامراء ومكانتهم في لبنان . فكانتا تحيطانه بشبكة غير
 منظورة من مظاهر العناية والمودة لتنسياء بيته واهله وخطيبته فيستعيض عنهم بخديجه
 وبيتها واهلها . فخديجه شقيقته وصديقه وحبيبته الخاصة ، والدتها امه الرؤوم ، وهو
 ابن البيت ورب الدار وصاحب الامر والنهي فيها وفي اهلها

ولكن الحب الراسخ في القلب لا يقلع كالشمل اليابس ، ولا ينزل في صدر

الرجل حب المرأة الغربية كالخمرة في الجوارح ، انما يزرع وينبت في وقته ويتأصل مع الزمن . فلما استبطأت زوجة احمد آغا وقوع الامير في هوى ابنتها لجأت الى السحر والتعاويذ ، وكانت أمهر نساء عصرها في هذا الفن وقد درسته في صباها على مربيتها المغربية مع صناعة الطب وتحضير العقاقير وتقطير العطور . وكان حسن قد قص عليها وعلى ابنتها حكاية عقد الياسمين الذي اهدته دلال له في الجنة ، فانهزت الخاتم فرصة احدى غيوباته ونزعت من صدره الذخيرة التي كان يحفظ فيها العقد واحرقته في ثلاث مجامر أوقفت خديجه في وسطها لتحول اليها القوة السحرية الكامنة فيه . ثم اشارت عليها ان تدخل حالا على الامير وتجلس بقربه فيشتم منها رائحة الياسمين ويندس حبها في قلبه . ولما اقتربت الصبية من حسن تنسم تلك الرائحة بانشرائح وقال لها متأوهاً :

— ما أعذب هذا العطر ؟

— انه عطر الياسمين

اني شديد الوع بالياسمين ، ولي فيه ذكريات عزيزة لذيدة ...
ثم اخذ يقص عليها للمرة العاشرة حكاية اجتماعه بدلال في الحديقة وما تبادلوا تحت ظل الياسمين من رقيق الحديث وكيف تعاهدا على الحب والزواج ...
فاكفهر وجه الفتاة لبلوغها عكس مرامها وخرجت تشكو الى والدتها سوء طالعها ، فأكدت لها الخاتم ان مفعول هذا السحر بطيء لكنه أكيد . ولزيادة تطمينها قصت خصلة من شعر خديجه وضعتها في الذخيرة بدلاً من الياسمين ثم خاطتها وأعادتها الى صدر حسن . فابتهج الامير لاستعادته الذخيرة العزيزة وكان يظن انها فقدت ، وضما الى شفتيه مقبلاً اياها بحرارة تقرب من العبادة وبها بدموع الحنين الى خطيبته ووطنه . فأسقط في يد الفتاة وكادت تياس لو عرف اليأس الى قلب المحب سبيلاً .
لكن خديجه رأت ان في مواهبها الطبيعية والمقتبسة ضامناً اقوى من السحر للوصول الى غرضها . فقد حبها المولى جمالاً فتاناً والحظاً جارحة وصوتاً ساحراً فضلاً

عن مهارتها في الغناء والعزف والرقص . فلم لا تخرج من جعبتها هذه الاسهم الحادة وتهاجم بها قلب الامير وهو في عزلة عن سواها وبين يديها النهار والليل ؟

لم تسكد هذه الفكرة تطرق ذهنها حتى استحسنتها ووطنت النفس على العمل بها . فدخلت في صباح اليوم التالي غرفة حسن وشاهدت بشائر الصحة تلمع في وجهه الصبيح وعلامات الانبساط تلوح في حديثه . فظهرت له ما يخالجه من السرور لرؤيته على هذه الحال وقالت انها تحسب هذا اليوم عيداً لاهل البيت يجب ان تقام فيه الافراح لشفاء عزيزهم . ثم استأذنت والدتها وجاءت بعود بديع الصنع ، دقيق الحجم رشيق العنق ، مرصع بالاصداف المتلاثلة ومحلى بالنقوش العربية الانيقة ، فألقت ذراعه على كتفها الأيسر ، واحتضننه ، وضمته الى صدرها ، وأحنت رأسها عليه فعانقته بحنان ، لان على نعماته الشجية قد علفت آمالها وحياتها ، وأخذت تمر على أوتاره بأناملها الناعمة بخفة وبراعة لم يعهدها حسن بغيرها . وكان شديد الميل الى اللهو والغناء وقد حرمه زمنا طويلا ، فطابت سريرته وهزه الطرب وأخذ يرافق العود بصوته الرخيم وقد زاد رقة لضعف قواه وصدره . فأبدت المرأتان اعجابهما وزاد الامير سرورا . ثم أشارت الخاتم على ابنتها أن تنشده شيئا ، فتدلت قليلاً ولما الح عليها حسن رمقته بنظرة عتاب لم يفهمها لاول وهلة ثم جادت بصوت صاف عذب اخذ بمجامع قلبه وغنت موالا لطيفاً محزناً اتبعته بهذين الشعرين :

كعصفورة بيد طفل يهينها تقاسي عذاب الموت والطفل يلعب

فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

وكانت تعيد كل شطر من هذين الشعرين بلهجة مختلفة قليلاً عن الاولى وتودع كل كلمة من قوة الشعور ورقته بين صباية ولوعة وتألم ولهفة ما فعل في الفتى فعلاً غريباً حتى أنه لم يعد يطق أن يحدق اليها . فتمحقق شدة هيامها به وفهم انها تعنيه بالطفل الذي يلهو بقلبها ولا يعبأ بعذابها ، أما هي فعالقة به تفضل مقاساة آلام الصد على ان تفارقه .

فبدت على حسن أمارات الانقباض ولاحظت الخاتم ذلك فزجرت ابتها قائلة :
— مالنا ، يا بني ، وهذه الاشعار المحزنة أنشديه ما يشرح صدره ويفتح قلبه
للحياة ، كبعض الادوار المصرية التي تعلمتها على عبده المصري الذي لجأ شهراً الى
دارنا ، ففيها من الخفة ورقة النظم ما يسري عن الانسان . فأمن حسن على هذا الاقتراح
ليزيل ما داخله من الاضطراب والح على خديجه ، فابنسمت له ابتسامة معناها انها
لا ترفض له طلباً مهما عز عليها ، ووقعت على العود دوراً غرامياً لطيفاً رافقته بصوتها
المطرب ، فانتعش حسن وثل وأحسن ان لنبرات هذا الصوت الساحر صدى يتردد
في صدره وان حب هذه الفتاة يسري في ضلوعه كالخمرة ، فكان يلتقط من فيها
المتورد المعاني الغرامية كأنها قد نظمها له دون غيره ، ويشعر انه واقع لا محالة في
هواها ، وخيل له انها اخف النساء روحاً وافتنهن حسناً واحراهن بحبه ، فلا بد له
من ان يفسح لها مجالاً في قلبه بقرب دلال خطيبته .

اما كيف يوفق بين هذا العشق وغرامه الاول فلا يعلم ، انما ما ضره لو استحل
كليهما . الم يخلق الباري المرأة للتسلط على قلب الرجل ، اليس هو واهب هذه
الاحاط الجارحة ومكون هذا الجسم البض الناعم ؟ الم يعطها هذه القوة السحرية
لتجذبته وتستأسره ؟ لقد أحال المولى عليه في حياته غادتين من أبدع ما صور ، وقد
تعلقنا بأهدابه وعلقنا آمالهما عليه ، فكيف يقوى على صدهما . دلال هي اللطف
والذوق والنبالة والذكاء والزانة والعفاف ، وقد بادلت الحب وعاهدته على الزواج ،
ولن يتركها ما دام فيه رفق من الحياة . اما هذه الفتاة فهي الغرام بكل ما فيه من
سوى ولذة : جمال وغنج وطرب وسحر ، وقد جعلته مدار حياتها وشعورها وسعدها .
فهل يرضن عليها بعاطفة ؟

كانت هذه الافكار تجول في صدر حسن وهو تحت تأثير رنات صوت خديجه
وعزفها . ولما سكنت افاق لنفسه كن يفيق من حلم لذيذ وشعر بامتعاض ان هذا

الحلم الذهبي صعب التحقيق . أترضى دلال وهي الاميرة الالية وصاحبة الاسبقية ان يجزىء قلبه بينها وبين خديجه وان رضيت هذه ؟

ولم تكن المبادئ المسيحية قد رسخت تماماً في قلوب الامراء الشهابيين لحدائهم عهدهم بها وتعودهم على نيل كل رغائبهم دون مانع او رادع ، سوى التقاليد العائلية والقوة المساحة . فان لم يعبأ بالشرعية المسيحية التي تمنع من تعدد الزوجات فهل يتحدى شرع الامراء الذي لا يسمح له بالترزوج من غير الاميرات . فكيف يقترن بكردية غريبة لا تناسبه في النسب والمذهب والثرية ؟

ولكن عين الحب عمياء . فاذا سيطت الشهوة على عقل المرء حجبت عنه الحقيقة واسكمت فيه صوت الضمير والشرعية . شعرت خديجه بفوزها وانها أصبحت اقرب الى قلب حسن من كل وقت ، فلم تعد تدع فرصة تفوتها دون ان تعيد الكرة عليه . فكانت كلما آتست منه الرغبة تناولت العود المحبوب - الذي تأمر معها على اكتساب عطف الامير - وأثارت هيامه بها كما تثير أناملها أنين تلك الأوتار ولعبت بقلبه كما تلعب بها . وقد حملتها الرغبة في الوصول الى غرضها بأسرع وقت على ان تطرح جانباً الادوار المحتشمة التي تعرفها وتستخرج من ذهنها كلما حفظته في غرف الحريم وقاعات الحمام من الاغاني السمجة المحركة للشهوة . ولما رأت ما صادفت لديه هذه الادوار الخلاعية من الاستحسان وما زادته من الولع بها ، عمدت الى التهنك امامه في ملابسها وحركاتها وأحاديثها ، ورأت باغتياب قوة تأثير ذلك فيه ، وقد اعتزل شهوراً المجالس وحرم رؤية غيرها من النساء . قشجعت ومضت في ذلك الى أبعد ما أمكنها . وفي احد الايام وقد وثقت من كلفه بذلك ، رمت بالعود جانباً وتناوت من احدى زوايا القاعة رقاً صغيراً ذا صنيجات دقيقة ونهضت ترقص على توقيعه برشاقة وغنج وتهتك خلبت لب الامير وأطارت صوابه . فرمى بعمامته بين قدميها المتقلبتين بخفة على السجاد الحريري وطارحها الغرام بالفاظ قدرة كأنها احدى بنات الهوى . فلم يبدُ على وجه الفتاة ادنى احمرار الحياء بل طفح سروراً وسددت الى الامير نظرات غرامية جن

بها . فاقسم لها انها مليكة فؤاده وانه لا يرضى بسواها زوجة . فما كان منها الا ان اقبلت ، على مرأى من والدتها ، وطوقت عنقه بذراعيها العاريتين وطبعت على شفثيه قبليتين الهبتا صدره ، واعلنت انها له للحياة . فهتفت والدتها :

— هنا كما الله يا ولدي وأتم بغيتكما . وسافتح زوجي هذا المساء بامركما ولا إخلاله الا راضٍ عن زواجكما لما للامير حسن وأهله من المنزل عندنا ...

ومنذ ذلك الحين اصبح حسن العوبة بيد خديجه ، فأخذت ، بإشارة من والدتها ، تتحاشى مجالسته ليزداد شوقاً اليها ، ولم تعد تقابله الا بحضور والدتها التي افهمته ان زوجها مرتاح من ميله الى ابنتهما وينتظر ان يطالبها رسمياً منه بأقرب وقت . فأجفل حسن من هذه المفاجأة ، مع انها نتيجة منتظرة لما فاه به من الوعد ، ولكنه لم يكن يتوقع ان تسير الامور على هذه السرعة نحو الرسميات . فاستمهل والدتها ريثما يستحضر من بيت ابيه مالاً كافياً يقدمه مهرراً للفتاة وينفق عليها بسخاء بعد ان تصبح عروسته . وأخذ حسن يفكر جدياً في حاله وما سيجره عليه هذا القران من استياء والديه والامير بشير وبقية الامراء والمعارف . نعم ان هذه الفتاة فتاة ، وقد يجد في عشرينها من البسط والتنعم ما لا يجده في ابنة عمه المحتشمة الأتية الرصينة ، ولكنها كردية مسامة فلاحه — لان الامراء كانوا يعدون العامة فلاحين — ، فان مانعه والداه ، كما هو المنتظر ، فسيمنعان عنه المال ، وهل ترضى الفتاة به فقيراً ؟ ومع ذلك لم يعد يسهه التقهر امام عهده ، ولا بدله من الاحتيال على والديه لاختد حصّة كبيرة من ارثه قبل ان يعاما بنميته الحقيقية من طلب المال . فأرسل فهداً يبشرهما بشفائه ويطلب منهما مبلغاً وافراً لتقديم هدايا فاخرة الى مضيفيه .

اما ما كان من الاميرة دلال فقد اهتز قلبها فرحاً لما علمت بما أتاه حسن في سبيلها وسبيل الوطن من اعمال البطولة والمروءة والدهاء في الحرب الاخيرة ، وان الامير يوسف تنازل له عنها نهائياً بحضور الامير بشير ورضى والدها ووالده ، فاصبحت

خطيبته الشرعية . ولكن القلق ساورها في الوقت نفسه لسقوطه جريحاً ولا سيما لانتمكسه من شدة الفرح الذي تولاه لما وعد بها . فكان السرور والحزن يتنازعا قلبها . وزاد قلقها عندما شاهدت معارضة والدتها في هذا الزواج . فقد جاهرت هذه انها ستحول دونه مهما كلفها الامر . ولما نهبها زوجها الى خطورة موقفها ازاء الامير بشير اجابته بوقاحة :

— للامير بشير حرية التصرف في اهل بيته ، اما انا فلا اسمح له ولا للسلطان ان يتدخل في شؤوننا العائلية . لاني ربة البيت والمرجع الاخير في امر اولادي . فان لم يكن عندك الشجاعة الكافية لصون حقوق بيتك فسأتولى انا ذلك .

وفي الحال استدعت الامير يوسف وعاتبته على الخنث بعده والتنازل للامير حسن عن حقوقه في دلال ، كأنها سلعة تباع وتشترى في السوق . فأجابها الامير يوسف برزانة انه يعد الاميرة دلال أثمن من المال والمهيج وانه كان على استعداد ان يفديها بحياته من ان يسمح لاي كان بنزعها منه . ولكن مصلحة الوطن ، وهي فوق المال والرجال والقلوب ، قضت عليه بهذا التنازل ، وما عاد شرفه وحق الوطن عليه يسمح له بأن يرجع عن وعده للامير بشير والامير حسن ، الا اذا فضله الاميرة دلال على ابن عمها . لان الدين المسيحي يمنح الفتاة حق رفض كل طالب لا يوافقها ، مهما تكن رغبة والديها فيه ، فان جاهرت الاميرة دلال امام الامير بشير او الست الكبيرة بتفضيله على الامير حسن ، استعداد حقوق التقدم عليه واصبح في حل من عهده

فسري عن والده دلال لما سمعت بهذا الحل ورأت ان تتمسك به فتبلغ غرضها من الحؤول بين الامير حسن وابنتها وتجنب اغصاب الامير بشير واثارة العداء بين زوجها وأسرة أخيه . فابتسمت للامير يوسف وقالت له :

— اذا كان الامر كذلك ففقط ان دلالاتك ، لانها غير راغبة في ابن عمها ولها ميل خاص اليك ، وسأحملها على التصريح بذلك امام الست الكبيرة ، فلا يعود للامير بشير ما يتمسك به ، لانه مسيحي مثلنا ويحترم الشريعة الكنسية اكثر منا ويعرف

ان الكلمة الاخيرة في الزواج المسيحي للفتاة

وما خرج الامير يوسف حتى استدعت ابنتها وافهمتها انها ووالدها غير راضيين عن الامير حسن لسوء سلوكه في الماضي وشراسة أخلاقه واعتلال صحته ، فهو ان نجا من الموت لا ينجو من انحطاط القوى بسبب جرحه الاخير ، بل يعيش طول حياته سقيماً شحوباً . اما الامير يوسف فشاب في عنفوان الصحة والجمال ، فضلاً عن ثروته الوافرة وأخلاقه الرضية .

وكانت دلال عالمة بمكر والدتها وكراهتها لحسن فأجابتها برباطة جأش :

- اذا كان ابن عمي حسن في حالة اليأس فلننتظر يا أماه ما بقي له من الايام ولا نزد شدته شدة ونعجل في موته حزناً ، فنفتح علينا باب الملامة .

- بل ان مرضه فرصة نادرة لتخلص منه ومن عهد الامير بشير له

- وهل يليق بنا يا أماه ان ننتهز هذه الفرصة لنخون عهده ، وقد خاطر بحياته

لاجلي ورجح الحرب ليربحني . وانا الآن خطيبته الشرعية فلا يجوز في شرع الدين وعرف الامراء ان اتركه وابدله بمزاحمه ، ولا سيما اني المسببة لمرضه .

- انك تتكلمين امامي كسيدة مطلقة الحرية فتجاهلين ان حقوقك وحريتك

في ايدي والديك وانهما وحدكما صاحبا الحل والربط في امر زواجك . فوعد الامير بشير لحسن تعد على حقوقنا ولا اسمح له ولا لا كبر منه ، ما دمت في قيد الحياة ، ان يمس هذه الحقوق .

- لقد قطعت يا أماه للامير بشير عهداً علي فتنازل عن هذا الحق لابن عمي

الذي ربح منه الرهان . وانت تعلمين انهما أقاما الامير بشير حكماً بينهما في هذه المنافسة وان ذلك كان برضاها ورضى والدي وسائر الامراء . فان ارغمتني على رفض ابن عمي تعدينا على حقوقه وثلمنا شرفنا بيدنا ، وانت اول من يغار على شرف الامراء وسمعة بيتنا

- مالنا وهذه الماحكة . لقد اخطأت في محادثتك بهذا الامر . فان ارادتي

وارادة اييك ان تزفي الى الامير يوسف قعدان . وأنا ذاهبة معك غدآ الى الست
الكبيرة لابلغها عدم رغبتك في الامير حسن وارجوها الاعتذار الى الامير بشير عن
مخالفتنا لوعده . لان الكلمة الاخيرة في الزواج المسيحي للوالدين . فاستعدي للسفر
غدآ الى بتدين واياك المخالفة او طرق هذا الحديث فيما بعد .

- انا لا اخالف لك امرآ يا اماه ، وليكني حرة في الاقدام على الزواج من عدمه .
فأنا افضل الانزواء في احد الديورة ونذر العفة على خيانة ابن عمي الذي فداني بدمه
وربحني بجهاده !

- انت تحبين هذا السافل ؟ اذاً أنت خائنة لوالديك وبيتك . اخرجي من
أمامي وفكري جيدآ في كلامي . وأقسم لك بشرفي اني لا أعدك ابنتي الا بعد ان
تجاهري برفض ابن عمك وتفضيل الامير يوسف عليه ! ..

١٠

بين الوردتين

علم القس انطون من فهد بما كان من وقوع الامير حسن في هوى خديجه
وعزمه على الاقتران بها . ناسيآ خطيئته وعهوده لها ، دائسآ ثمرة جهوده السابقة في
سبيلها . وعرف ، ايضآ من جهة اخرى ما دار بين الاميرة دلال ووالدها من الحديث
وما دبرته هذه الام لحمل زوجها وابنتها على الحنث بعهودهما للامير حسن وكيف ان
الاميرة الوديمة وقفت في طريق هذه المكيدة وتحمات غضب والدتها وجاهرت
بتفضيلها التهرب على التخلي عن خطيئها . فرأى ان شجاعة هذه الفتاة توازي عظمة
خيانة والدتها وخطيئها ، وان الامير يوسف الذي فضل تضحية قلبه على تدنيس
شرفه والرجوع عن وعده يليق وحده بهذه الاميرة الباسلة .

ولكن الخوف من العواقب الوخيمة التي تعود على الوطن والامارة من زواج
حسن بالفتاة الكردية حمات هذا الكاهن الصالح الوطني على ان يتدخل في

الامر . فيمنع الامير حسن من خسارة دينه وشرفه وحقوق الامارة ، ووالدة دلال من اشغال نار العداء بين زوجها واسرة اخيه وتحدي الامير بشير حاكم البلاد ، وارغام ابنتها على الاقتران بشاب لا تميل اليه . وقد زاد امله في النجاح ثقته بان الامير حسن اذا ابتعد عن تأثير خديجه الملازمة له كالظل ، ثاب الى رشده وسمع صوت ضميره وقلبه ، فعاد الى الجهاد للوصول الى خطيئته بعزم يفوق ما أبداه لاجلها في الماضي .

وبينما كان حسن منتظراً عودة فهد خادمه اذ دخل عليه القس انطون . فلم يتمكن من اخفاء اضطرابه ، كمن يفاجأ وهو على اهبة ارتكاب جناية ، ولكنه لم يلبث ان اقبل على يد استاذة وقبلها . فاحس الكاهن بارتعاش انامله وبرودتها ، لكنه تجاهل ذلك وضم حسن الى صدره طويلاً كالاب الحنون لابنه ، وهناك بسلامته مظهراً سروره برويته معافى بعد زمن طويل ، وافهمه انه جاء الى دمشق بمهمة كلفه الامير بشير اياها ، وهي الاتفاق مع واليها على تأمين الطريق بين هذه المدينة العظيمة ولبنان . واخبره ان الامير بشير تسهلاً للتجارة قد رفع رسوم الخفارة الموضوعة قديماً على خان الحصين وخان المديرج في طريق دمشق وعلى خان الناعمة في طريق صيدا على الساحل الجنوبي من لبنان ، وعلى مينائي جونيه وجبيل في طريق الساحل الشمالي منه ، اي بين بيروت وطرابلس وعكا .

وبعد ان تناول الاب انطون قسطاً من الراحة وشرب القهوة اختلى بالامير حسن وسامه كتاباً صغيراً معطراً . ففضه حسن فوجده يحوي بضع زهيرات من الياسمين وهذه الكلمة بخط دلال نفسها :

« الى ابن عمي العزيز وخطيبي الامين ادامه لي المولى سنداً وخرّاً
« لقد طال غيابك واستوحشت الدار وما فيها لفراقك . اسقمني سقمك وشفاني شفاؤك ، وبت على أحر من الجمر في انتظارك . لقد انتهز الخصوم فرصة مرضك وبعذك لابعادك عن صاحبة العقد الذكي الرائحة والقلب الذهبي المرصع ، وبما ان

ولي القلوب والارواح قد أعاد اليك العافية ، أفلا تسرع قبل فوات الوقت بالعود الى حافظة عهدك
خطيبتك دلال

بينما كان حسن يقرأ هذه الاسطر وير بنظره على تلك النكبات المكتوبة بيد لطيفة محبة كان الاب انطون يقرأ على جبين تلميذه ما يربيه من تأثير الافكار والشعور . فظهر الاضطراب على ملامحه ، ولما لم يتجاسر على التحديق الى استاذه ، خوفاً من أن ينكشف سره ، اخذ يراجع الكتيب الى ان يملك نفسه . فامهله الكاهن ثم فاجأه بالسؤال :

- هل استوعبت يا بني ما في هذا الكتاب ؟ هل ارتحمت الى ما خطته لك أنامل خطيبتك الصغيرة من عبارات الوداد والاخلاص ؟

فتلثم حسن وأجاب دون ان يرفع عينيه عن الكتاب :

- لقد فهمتُ بعضه واغلق علي بعضه . من تعني بالخصوم ؟ هل ظهر مزاحم جديد أم اخلف الامير يوسف وعده ، أو تنامي الامير بشير عهده ؟

- لا هذا ولا ذاك . فالامير بشير لم يحث في حياته بعهد ، والامير يوسف أشرف من ان يخلف موعداً . أما والددة الاميرة دلال قد ضربت بعهد الاميرين عرض الحائط وكادت المكائد لحرمانك حقلك في ابنتها . فاستدعت الامير يوسف وعاتبته على تخليه عن دلال زاعمة ان ابنتها ما زالت محافظة على عهده . فأجابها الامير يوسف انه على استعداد ان يفدي الاميرة دلال بحياته ، ولكن الوطن وحرمة العهد فوق المهج ، وقد ضحى قلبه في سبيلهما . اما اذا كانت الاميرة دلال تفضله على ابن عمها فيصبح في حل من وعده . لان الدين المسيحي يعطي الفتاة حق رفض الطالب الذي لا تميل اليه . فسرت والدتها بهذا الحل الذي يتلافى اغصاب الامير بشير وتوسيع شقة الخلاف بين زوجها واسرتكم واستدعت ابنتها وأفهمتها انها ووالدها غير راغبين فيك ، فعلمها ان تصرح امام زوجة الامير بشير بتفضيل الامير يوسف عليك .

فحاولت خطيبتك ان تثني والدتها عن عزمها وبينت لها ان ذلك حنث بالوعد وثلم لشرف الامارة وخيانة في حق خطيبها الذي اكتسب يدها بجهاذه في سبيل الوطن . فغضبت واحرجتها . فصرحت لها دلالة انها تفضل التهرب على خيانتك . فلما تحققت والدتها من ميل ابنتها اليك وثباتها على عهدك انفجرت مرارة الحقد الكامنة في قلبها عليك ، وانهاالت على الفتاة المسكينة بالكلام القارس مما لا تطيق عبدة ذليلة سماعه ، ثم طردتها من امامها الى ان ترجع عن تشبثها فيك . وقد مضت الان ثلاثة اشهر وهي تحاول بكل طرق العنف والتلميق حملها على التصريح بتفضيل الامير يوسف عليك ، فلم تفلاح . وقد اكدت لي هذه الفتاة الباسلة انها تسنسل ان تذبح ذبحاً في سبيلك من ان تخونك ، فتفديك بحياتها كما فديتها بدمك . . .

ولم ينته الكاهن من كلامه حتى شاهد حسن يضم الكتيب الى فمه ويقبله بحجارة متشققة شذا الزهيرات ، التي رطبها بدموع سخينة . فتحقق الكاهن بارتياح ان حب دلالة قد عاد مندفعاً الى قلب حسن طارداً كل ميل غريب . فلم يدع الفرصة تغوته وسأله بحزم :

— والان ماذا تفعل يا بني في سبيل خطيبتك الباسلة ؟

— افديها بحياتي للمرة الثانية . والويل لمن يقف في سبيلي اليها ! . . .

* * *

لازم الارق تلك الليلة الامير حسن فاستوى على فراشه واطلق الافكاره العنان . فشاهد الرواية التي مثلت في لبنان لاجله : خطيبة ودودة باسلة ، والدة حانقة ماكرة جبارة ، والد متقلب جبان خنوع ، مزاحم شريف ولوع ، كاهن مخلص غيور . مثل كل من هؤلاء الاشخاص دوره بمهارة حول خطيبته الصغيرة ومازالوا يتشادونها . فأني دور يمثله هو ؟ اترك هذه النعجة الوديمة تخطف من يده ؟

أيديوس شرف اليهود والامارة لاجل فتاة غريبة عنه مذهباً ومحتداً وتهذيباً ، اغوته
بخلاعتها واجتذبه بجمالها الفلاحي وغنائها البذي ، ورقصها المتهتك . نعم كل ما في
هذه الفتاة الكردية أي بهيمي شهواني . فستان ما بينها وبين دلال الاميرة المسيحية
المحتشمة النبيلة في اصلها وعواطفها واخلاقها وآدابها فضلاً عن علمها ووزانتها . خديجة
هي المرأة المحبولة بالشهوة . ودلال هي الملاك الطاهر المخلص . هذه الحب الحيواني
المنقلب وتلك الحب السامي الثابت .

وكانت الليلة دافئة وقد ولجت الغرفة الواسعة انوارُ القمر الساطع خطوطاً
عريضة فضية ، فنهض والتحف بعباءته المزركشة بالذهب ، فاستقبلتها اشعة القمر
بالتحية ، فتلاأت . فسرّح حسن نظره في الافق فاذا الجبال اللؤلؤية منبسطة على
اسطحه الفيعاء وبساتينها وقد دار النسيم بعطور ازهارها على المنازل ونشرها بسخاء
في الجو الهادي الباسم فسكّرت الطبيعة من اريجها وباتت في هدوء وخمول ، الا
الجداول فقد كانت تسرح طرودة بين الاشجار والرياحين .

وكان هناك على أفريز النافذة مزهرتان نبتت في كل منهما وردة حملت في
عنقها زهرة تفتح كها . احدهما بيضاء نقيّة لا يكاد عطرها الناعم يقوى على الوصول
الى الانفاس ، ولكنه من اذكي الروائح والذها وانفسها ، والثانية حمراء جمرية من نوع
الورد الجوري ، تنفوح منها رائحة قوية جارحة مسكرة . فأخذ حسن يتأمل الوردتين
فرأى فيهما صورتَي حبيبتيه . هذه سطت على قلبه بعطرها الشديد فدوخته وأنسته
تلك الوردة النقيّة البياض مثال الطهر والرفقة . هذه تضمن له اللذة البهيمية الوقية ،
وتلك السعادة الهادئة الدائمة . هذه العوبة سيلهوها كالطفل الى حين ثم يسأمها ،
وتلك ستكون شريكة حياته ، تشاطره افراحه وعواطفه وافكاره وتواسيه في احزانه
وتمشي معه جنباً الى جنب في مصاعب الحياة واظوارها . فأيهما يقطف ؟

فمد حسن يده الى الوردة البيضاء فقطفها وارشف قطرات الندى من ثغرها
وعلقها فوق قلبه كما علقت دلال القلب المجوهر فوق صدرها . وهتف :

— انك عطر حياتي يا دلال ، وستبقين على صدري الى آخر نفس من أنفاسي ! ..

وفي صباح اليوم الثالث ودع الاب انطون والامير حسن آل احمد آغا الموريلي
شاكرين لهم حسن ضيافتهم وشديد عنايتهم . وكان الكاهن قد جلب معه لاصحاب
البيت وخدمهم هدايا نفيسة من حرائر الزوق فوزعها حسن عليهم وخص خديجه
بمسلح فضي ناصع البياض محلى بالورود الحريرية اللامعة الالوان البديعة الصنع .
اما خديجه فلم تطق الظهور أمامه للوداع بل لازمت غرفتها حائقة . ولم تتجاسر والبتها
ان تسأل حسن امام الكاهن عن غرض رحلته وميعاد عودته . فقد افهمها بحضرة
الاب انطون ان غيابه قصير لقضاء بعض اشغال عائلية ، فتوهمت انه ذاهب لتدبير
المال اللازم لزفافه بابلتها .

اما خديجه فلم تتخذع لتيقظ قلبها بل اوجست من هذا الرحيل شراً وعدته
الهجر النهائي وشعرت ، والشعور في الحب دقيق جداً ، ان حسن اذا شاهد ابنة
عمه عني عن حب غيرها . وما خفت قرعة القافلة الراحلة في الحارة الهادئة حتى
دخلت والبتها عليها فرأتها قد حلت شعرها الطويل كالارملة التي تفقد زوجها
واسترسلت في البكاء واليأس . فحاولت عبثاً ان تخفف عنها وتقمعها انه ذاهب
في سبيلها وعائد اليها بعد قليل . فكانت تحجبها هازة رأسها والعبرات تخنفها
— قلبي يحدثني ان هذا الكاهن رسول شؤم وان حسن قد أفلت مني الى
الأبد... وان اعيش بعده دقيقة واحدة... سألحق به وامسك بتلابيبه. فان
رفضني ريمت بنفسي من اعلى سطح داره فيدقني بيديه واربح دمعتين من عينيه...
فاجابتها والبتها متجلدة ، لكن نبرات صوتها كانت تحونها :

— فلننتظرياً بنيه . اذا يكون ثم نتخذ طريقاً لنا يوصلنا الى غرضنا . وأكدي
ان من احبك مثل حسن لا يمكنه ان يقلع ذكرك من صدره .

ولم تنض ربع ساعة حتى كانت القافلة قد خرجت من ارقعة دمشق الضيقة
واطلت على الحقول الجميلة المزدهرة . فاستقبلهم نسيم الربيع المعطر ، فتنشقه حسن

طويلاً ، وشعر وهو يسرح نظره طليقاً فوق هذه المروج ، انه اصبح طليقاً من سجن ضيق وان هذه العطور المنعشة قد طردت من صدره الروائح المخدرة التي كادت تخنق عواطفه وتسلبه شرفه وحب الطاهر لخطيبته العفيفة .

وكان فهد قد تقدم معاه الى اعميه لينشر اهله بقدومه وتوصل بواسطة احدي خادمت دلال ان يعلمها بميعاد وصوله الى القرية . فهرول رجال الامير حسن واصداؤه للملاقاتة وهم ينشدون الاناشيد الحماسية . ولما اطل موكبه على اعميه وقف الرجال على الاكمة وقاموا بالاهازيح واطلاق البارود ، فأجابهم رجال القرية المجتمعون حول دار والده بالحورية والهاثف واطلاق البنادق حتى ارتجت القرية والهضاب والادوية وأطل الجميع من النوافذ والاروقة وأسرع الامراء والوجهاء من رجال وسيدات الى دار الامير حمود لتهنئته بوصول ابنه معافى بعد غياب طويل . ولما صار حسن على مقربة من قصر عمه صوب عينيه الى غرفة دلال فاذا هي بنفسها واقفة في تلك النافذة المحبوبة ، حيث رآها لأول مرة ، وقد توسط رأسها الملائكي فضاء تلك النافذة البيضوي المحرم تخريباً دقيقاً كالآطار حول الصورة ، وتسلفت الجفنة والتفت حولها واهتزت طرباً بوريقاتها النضرة . وقد تدلى من عنق خطيبته عقد مزدوج من زهيرات الياسمين ذكراً للعقد الذي نظمته له في جنينة الشيخ لما قابلها غلساً . وشكت في شعرها الذهبي المنسدل على كتفها عدداً كثيراً من تلك الزهيرات البيضاء المحبوبة . وحالما التقى نظرها بحسن اخذت تلوح له بمنديل صغير غير حاسبة لعيون الوشاة التي كانت ترقبها حساباً ، فهي تستقبل خطيبها الشرعي .

فهاجت في صدر حسن عواطفه فرفع من صدره الوردة البيضاء التي علقها في الليلة البارحة وضمها بعبادة الى شفتيه . فما كان من دلال الا ان نزعته من صدرها القلب المجوهر ورفعته في الفضاء لتذكره به ثم أدنته بعبادة من فمها الصغير . فمتناثرت الدموع من عيني حسن فرحاً وتأثراً من هذا المظهر ولولا خوفه من افتضاح سره وحرصه على حرمة قلبه لاقتحم باب ذلك القصر وتساق العريشة الصاعدة الى غرفة

ملاكه وضمه الى صدره طويلاً . ولكن القس انطون - الذي شاهد بحنو الاب هذا المنظر ، وهو مدبر تمثيله - اعاده الى رشده لافتماً نظره الى الجمع المحتشد امام دار ابيه والنساء المطلة من النوافذ والزغاريد التي تتصاعد من صحن الدار . ولما مر الموكب بين بيوت القرية كانت الازهار ومياه الورود تتساقط على رأس حسن والتمهاني والتحيات تزف اليه كأنه ذاهب الى دار العروس .

ولما بلغ الموكب باب الدار رأى حسن والده واخوته وأقاربه ومعارفه ينتظرونه فترجل وارتقى على عنق والده وقبل يده واخوته والحاضرين . ولما دخل صحن الدار هزت الزغاريد اركانها واذا بوالدته تهول نحوه باكية سروراً فارقت بين ذراعيها ، فضمته طويلاً الى صدرها وقبلته مراراً . ولما دخل القاعة اقبل عمه الامير حيدر والد دلال وقبله فقبل حسن يده وسلم على الحاضرين . وبعد المرطبات همس الامير حمود في اذن حسن قهض ودخل قاعة السيدات حيث تصدرت امرأة عمه فأسرع لتقبيل يدها وليكنه احس انه يلمس عقربة . وبعد ان لثم ايدي خالاته وعماته عاد الى القاعة حيث مد سماط فاخر . واستمرت الولائم والافراح في دار الامير حمود اسبوعاً كاملاً . وفي اليوم التالي اقام الامير حيدر وليمة لابن اخيه . ولما دخل حسن القصر حلق في نافذة غرفة دلال فلم ينظرها ، فانقبض قلبه وخاف من سوء حالها . ولم تسكد الولاية تنتهي حتى دفعه قلقه الى مفاتحة عمه بشأنها قائلاً في نفسه : في قلبي دمل يجب ان افتحه حالاً . ولما انفرد بعمه ذكره بوعده وطلب اليه رسمياً يد دلال وسأله ان يعين يوم الخطوبة الكنسية

ولم يكن الامير حيدر ينتظر ان يقدم حسن هذا الطلب بنفسه وليكنه كان مستعداً له وقد لقنته زوجته ما يجيب به . فأطرق في الارض هنيئة ثم قال له :
- انت تعلم يا حسن مقدار محبتي لك ورغبتي في ان تكون ابناً خاصاً لي ولامرأة عمك . ولكن لا يسعني ان اكره ابنتي على التخلي عن خطيبها الامير يوسف قعدان ، لان الديانة المسيحية تنهي عن ذلك . وقد جاهدنا كثيراً انا وامرأة عمك

لتحويلها عنه تلبية لرغائب الامير بشير في زفها اليك فذهبت اتعابنا ادراج الرياح .
فاضطررنا الى تحديد يوم اكليها في الاسبوع القادم على الامير يوسف
وكان حسن يسمع كل هذا الكلام كأنه غير موجه اليه ولم يكذب يصدق ان تبلغ
الواقعة من امرأة عمه هذا الحد . فتملك اعصابه وسأل عمه بشي من رباطة الجأش :
- الامر اذاً معاق على ارادة دلال وقد خيرتموها بيني وبين الامير يوسف
ففضله علي ؟

- نعم ويالأسف

فلم يعد حسن يملك عنان غضبه وصاح بعمه قائلاً :
- هذا كذب ونفاق ! ان دلال خطيبي الشرعية ولا اتخلى عنها لاحد . وهي
لا تتخلى عني لا كبر امير . والويل لمن يحول بيني وبينها !
قال هذا وخرج من دار عمه والغضب يغلي في صدره .

لما رفضت دلال ان تصرح امام الست الكبيرة بتفضيلها الامير يوسف قعدان
على ابن عمها سجنتمها والدنها في غرفتها ومنعت ايأ كان من مقابلتها سوى الخادمة فاطمة
التي كانت تنكرها . ثم استدعت الامير يوسف قعدان وافهمته انها حادثت ابنتها بامر
زواجها بالامير حسن فصرحت انها غير راغبة في ابن عمها وانها تعد نفسها موعودة
رسمياً للامير يوسف . ولكن خوفاً من ان يأتي الامير حسن ما توحيه اليه طياشته
فيوسع شقة الخلاف بين الامراء قد استأذنت غبطة البطريرك يوحنا الحلوففسح لهما
من الخطوبة والمنادات الثلاثية في كنيسة القرية . فعليه ان يتجنب مواجهة خطيئته
وان يحدد ميعاداً للاكليل في اقرب وقت . فجازت الحيلة على الامير يوسف لسروره
سروراً لا يوصف بميل دلال اليه وبغوزه بها بطريقة تضمن شرفه ، وخير والدتها
في تحديد ميعاد الاكليل ، فجعلته بعد اسبوع
اما ما كان من الامير حسن فانه بعد خروجه غاضباً من دار عمه ركب حالاً

الى سراي بتدين حيث قابل استاذة الاب انطون واخبره بما كان من عمه وحنثه بوعده له وللامير وبما كادت له امرأته من المكاييد . وطلب اليه ان يطلع الامير بشير على ذلك . ولما علم الامير بشير بالامر دهش من تحدي الامير حيدر لرغبته ومن مخالفة الامير يوسف لعهد الصريح ، وواعد الامير حسن بالتدخل ، ولكنه ، خوفاً من ان يأتي بما لا تحمد عقباه ، أمره ان يلزم السراي ريثما يوفق بينه وبين عمه ومزاحمه وفي هذه الاثناء جدد سليمان باشا والي عكا خلعة الولاية للامير بشير كعادته في كل سنة فذهب الامراء حيدر وحمود ويوسف الى بتدين يهنئونه . فانهز الامير الفرصة وجمعهم مع حسن في جلسة خاصة لم يحضرها سوى القس انطون والمعلم بطرس بن ابراهيم كرامه كاتبه ومديره . وبعد ان جلسوا وتناولوا القهوة وجه الامير بشير كلامه الى الامير حيدر قائلاً :

— انت تعلم يا امير حيدر ان العادة المرعية في اسرتنا ان يقف كبيرها حكماً في ما يقع من الخلاف بين افرادها . وقد تنازع الامير يوسف قعدان والامير حسن حمود الاميرة دلال ابتكت وطلبا مني التحكيم بحضورك وحضور الامير حمود فجعلتها مكافأة لمن يمتاز منهما في حرب الشام . ولما كان جهاد الامير حسن في تلك الحرب ، ولا سيما اتفاهه مع الاكراد الذين كانوا في خدمة يوسف باشا ، قد رجح كفتها في مصلحتنا فربحناها بحسن تدبيره وحقنا دماء رجالنا ، فحكمت له بيد الاميرة دلال وقد تنازل له عنها الامير يوسف رسمياً بحضورك ورضاك . وكنت اعلل النفس ان المشكل قد انتهى على هذه الصورة وان الاميرة دلال اصبحت من حق الامير حسن وخطيبته الشرعية لا ينازعه فيها منازع . والآن قد بلغني انك خطبتها للامير يوسف ، فكيف اجزتما ذلك ؟

وكان الامير حمود فصيحاً رزيناً فأجاب بتأن وصوت واضح :

— ان حكم سعادتك في شؤون اسرتنا نافذ على الرأس لانك كبيرنا وفخرنا ، ولذلك لم امانع سعادتك في ما حكمت به في دمشق للامير حسن . ولكن والدتها ،

لاسيباب عائلية داخلية لا يسعني التصريح بها الآن، رأيت هذا الحكم في غير مصلحة بيتنا، ولا سيما ان ابنتنا نفسها لم تقبل التنازل عن الامير يوسف خطيبها. وسعادتكم اعلم مني بان الكنيسة المسيحية التي نأتمر بشرائعها لا تسمح بالزواج الا اذا كان الطرفان راضيين الواحد بالآخر رضا تاماً. وهذا ما حمل زوجتي على التمسك بالامير يوسف ودعا الامير يوسف ان يعد نفسه في حل من عهده للامير حسن ولم يتم الامير حيدر كلامه حتى نهض الامير حسن غاضباً وصاح به :
- هذا غير صحيح ! وفي يدي حجة قاطعة تنفي كلامك .

قال هذا واخرج من عبه كتاب دلال اليه وهو في دمشق وقدمه للامير بشير قائلاً - ارجو سعادتكم ان تقرأ هذا الكتاب فهو بخط الاميرة دلال وامضائها وموجه الي فقرأه الامير بشير سرّاً والتفت الى الامير حيدر قائلاً :

- هذا كتاب تعلن فيه الاميرة دلال رغبتها في الامير حسن . ولما كان زواجها حسب قولك معلقاً على ارادتها فقد اصبحت ، حسب الشرع الالهي فضلاً عن شرع الامراء ، من حق الامير حسن فاضطرب الامير حيدر وأجاب متلجلجاً :

- ان رضيت هي ... فوالدتها لا ترضى . والفتاة تحت امر والدتها وطوعها ... ومع ذلك فقد غيرت ابنتنا فكرها في الامير حسن بعد عودته من دمشق لدواع لا يصح ان اذكرها جهاراً في هذا المجلس ، وليس ذكرها من مصلحته ... فبناء على ذلك قد حددنا يوم الأحد القادم موعداً لزفافها الى الامير يوسف واعلمنا جميع الامراء بذلك ، فلم يعد في امكاننا الرجوع عنه .

فقطاير الشرر من عيني حسن وقبض على خنجره صائحاً :

- لقد سبق لعمي ان رفض طلبي لابنته البكر فان لم يسمح لي بهذه فلاسلام بيننا ! فقطب الامير بشير حاجبيه الكثيفين من هذه الجسارة ومن تحدي الامير حيدر لاوامره وأشار الى الحاضرين بالانصراف ، فانصرفوا مطرقي الرؤوس .

الأكليل

لما خرج الامراء من مجلس الامير بشير تأخر القس انطون لديه ورجاه ان يمنع
الامير حسن من اللحاق بعمه خشية ان تحمله حادثة على الانتقام . فكلفه الامير
بشير تبليغ الامير حسن رغبته في ان يصحبه في سفره الى عكا لتعزية الوزير بوفاته
مدبره علي باشا . فبلغ الكاهن الامير حسن هذا الامر وأكد له انه سيقوم مقامه
في الذهاب الى اعبيه وتدير ما يراه موافقاً لمصلحته . ثم ودعه ولحق بالامراء ،
فأمسكه الامير يوسف قعدان ورجاه ان يتولى حفلة تكيله ، فقبل الدعوة ورافق
الامراء الى اعبيه ونزل في دار الامير حيدر حيث كانت استعدادات العرس قائمة
على قدم وساق وقد اكتظت بالامراء والوجهاء وفي مقدمتهم الامير فاعور اخو الامير
يوسف وزوج سعاد شقيقة العروس

وقد فرحت دلال ببقاء شقيقتها فرحاً لا يوصف لشوقها اليها وحاجتها اليها في
عزلتها ومركزها الحرج . فافضت اليها بسرهما ورجتها ان تحمل والداتها على زفها الى
الامير حسن أو السماح لها بدخول الدير . فتأرخت سعاد وانفتح في قلبها جرح
قديم متذكرة حبها الاول لحسن وارغام والديها اياها على التخلي عنه والتزوج
بالامير فاعور ، التي لم تكن تعرفه في ذلك الحين وكان قلبها نافرأ منه نفور الغزال
من لم يستأنس به بعد . وها ان والدتها تعيد المأساة نفسها فلا أمل من ان تنسيها
عن عنادها .

فاجابتها دلال انها تفكر في طريق اقرب للوصول الى غايتها وهي ان تنوب
عنها بتبليغ الامير يوسف نفسه بأنها ما زالت عاتقة بابن عمها وترجوه ان يتولى هو
نفسه مهمة اقناع والديها بزفها الى الامير حسن فيفي بعدهم نحوه ويكتسب شكرها
الى الابد على هذه المروءة العظيمة .

فأجابها سعاد :

— ان الامير يوسف ذو نفس ابيه فهو لا يحجم عن تضحية قلبه في سبيل هذه المروءة ولو كانت ضد مصلحته وسيتنحى لا محالة اذا وثق من عدم رغبتك فيه . ولكن ذلك لا يزيد والدتنا الا عناداً فتصب على رأسك جام الغضب وتنتقم منك شرقة دون ان توافقك على رغبتك . فتكوني قد جنيت على نفسك فأغضبت والدتنا وفقدت رجلاً من احسن الرجال خصلاً وأجزلم ثروة ومكانة . واني على يقين انك ستميلين اليه الميل كله حالما تختبرين اخلاقه وادابه .

فلم تنبث دلال بجواب بل شعرت ان يداً حديدية قد طوقت عنقها فاستسلمت الى اليأس ثم الى البكاء . فنفطر قلب سعاد عليها ولم نجد ما تعزيها به لان بها الداء نفسه ، فكيف تشفيها . ولما لم يكن يؤذن لغيرها في دخول غرفتها لازمتها الاسبوع كله .

وفي مساء السبت السابق ليوم الاكليل اختلى القس انطون بالامير يوسف وذكره بواجب التقرب من سر الاعتراف هو وخطيئته لان الزواج سر مقدس لا يجوز الاقدام عليه الا في حال البرارة . فأذن الامير يوسف بارتياح الى نصيحة الكاهن وسأل والده دلال ان تأذن للقس انطون في سماع اعتراف خطيئته فأذنت ، فرافق الامير يوسف الكاهن الى غرفة دلال . فلما رأت الامير اضطربت وتلعثمت ومدت اليه يداً باردة ، فضمها بكفيه طويلاً ليحول اليها بعض ما فيه من حرارة وشوق . فخفت دلال جفنيها حياءً ودب في وجنتيها الناعميتين احمرار حاكي الورد نقاء ، فحقق قلب الامير يوسف لرويتها على هذه الحال من الحشمة والجمال النضر وزاد شغفها بها وعده نفسه من اسعد رجال الارض حظاً لفوزة بهذا الملاك الطاهر الذي سيصبح في القدر رفيق حياته ونجم سعادته .

ولما اختلى الكاهن بدلال لاحظ ان القلق قد أخذ منها كل مأخذ وقد اصطكت أسنانها واكفهر لونها فخطبها قائلاً :

— ارجوك يا حضرة الاميرة ان تتخذيني في هذه الساعة اباً لك وتولييني ثقتك الثامة وتصرحي لي بضميرك بحرية تامة . واكدي يا ابنتي ان عندي من الشجاعة ما يقدرني على الدفاع عنك امام اعظم عظيم . فاكشفي لي قلبك كما هو ولا تخفي عني ادنى شعور ينبض فيه فاني عامل لمصالحتك . ولا بد للطبيب اذا اراد شفاء العليل من ان يعرف موطن الداء فيه فيستنى له وصف الدواء . قولي لي اذاً بصراحة هل أنت راضية بالامير يوسف ؟

فلم تجبه دلال الا بالبكاء وقد استرسلت فيه حتى اغرورقت عينها الكاهن بالدموع فعزم على العمل في مصلحة هذه الفئة المظلومة مهما كلفة الامر . وقال لها بخنان الاب

— أكدي يا ابنتي ان شرك سيموت معي وان الله قد ارسلني في ساعة محنتك لارشذك الى ما فيه راحتك وخلصك . فانك قادمة على خطوة خطيرة لا رجوع فيها ، سيكون من وارتها تعسك ام سعدك الحياة كلها .

فرفت دلال نظرها الى الكاهن فقرأت في عينيه اخلاصاً وحناناً لم تعرفه في والديها . فأخذت يده وقربتها من شفيتها ولثمتها مراراً وبلتها بدموع سخينة ، خفت رعشتها وزال الابتهاض عن ملامحها فقالت له برباطة جأش وتأن :

— بما انك قد تفضت ودعوتني ابتك فانت لي مقام اب حقيقي لان والذي قد وطدوا النية على تضحيتي في سبيل أغراضهما وحقدهما كما ضحيا شقيقي سعاد قبلي . ان الامير يوسف يستحق احسن مني لما تحلى به من الخصال الحميدة ولكنني عاهدت ابن عمي حسن على نفسي وأخذت منه هذا العربون

قالت هذا وكشفت عن القلب المرصع المعلق على صدرها وقالت :

— أنذكر يا أبت زيارتك لوالدي دعد قبيل زفافها وأنت عائد مع حسن من بتدين لتطلب له يدي ؟ في صباح ذلك اليوم قابلني ابن عمي حسن في الجنة وأنا اقطف زهور الياسمين وأعد لي منها عقداً فماتعني بتملقه بي بكلام يلين له

الجماد . فلم أتمكن من صده ومالت نفسي بكليتها اليه فاعطيته قلبي كله وعاهدته على أن أكون له الى الممات . وانا ثابتة على عهدي ولو كلفني حياتي . ولا سيما بعد ان خاطر بنفسه في الحرب الاخيرة لاجلي ورجحي في الرهان وأصبحت خطيئة الشرعية فما العمل الان يا أبت وقد دنا ميعاد الاكليل وما جت الدار بالمدعوين . أرشدني فقد قلت ان الله أرسلك الي لتهديني في محنتي . قل لي اولا هل ابن عمي ثابت على عهده وماذا نوى فعله لمنع هذا الاكليل

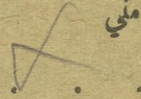
فأخبرها الكاهن بما جرى للامير حسن مع والدها في مجلس الامير بشير وما كان من غضبه وتهديده وكيف ان الامير بشير امره بالتريث في السراي خوفاً من وقوع انشربينه وبين عمه . وانه هو قد جاء ليستوثق من ثباتها على العهد وعمل ما يأول الى مصالحتهما . فسأله دلال بتلف :

— وما رأيك الان يا أبت وكيف التخلص من هذا الموقف الحرج ؟

— اعلمي يا ابنتي ان عقد الزواج المسيحي لا يتم الا بإرادة الخطيبين ، وما الكاهن الا شاهد عليهما في هذا العقد الكنسي . ولا يمكنه رفع الاكليل ، على رأسيهما الا اذا صرح كل منهما بحرية تامة برغبته في الآخر . فالكنيسة قد جعلت الزواج رباطاً وثيقاً غير قابل الانفصام الحياة كلها . ولكنها حكيمة عادلة ، فهي تمنح الفريقين المتعافدين وقتاً كافياً للتعارف وحرية تامة في ابداء رأيهما . وتوجب على الكاهن ان يتثبت من رضى الفريقين قبل ان يعقد زواجهما لكيلا يعود في المستقبل لاحدهما عذر في الطلاق من الآخر

فان لم يكن لك رغبة في الامير يوسف وصرحت بذلك امام الكاهن لا يمكنه ان يرفع على رأسك الاكليل ولو تهددوه بالقتل . فالامر اذاً معلق على ارادتك التامة لا على ارادة والدك ورفضك لا يعني المعصية بل استعمال حقك وساتولى انا غداً صلاة الاكليل وسأسألك امام الحاضرين اذا كنت راغبة في ان يكون الامير يوسف زوجاً لك . فان لم تصرحي برضاك به أكدي ان لا قوة على الارض تستطيع

ارغامي انا او ابي كاهن غيري على تكليتك . هذا شرع الكنيسة المقدسة لا
يقبل تأويلاً او مخالفة . والان وقد صرحت لك بما يوجب علي ضميري ادعوك ان
تتقدمي الى سر الاعتراف والالتجاء الى سيدتنا مريم العذراء شفيعة البتولات
لتاهلك ما فيه خيرك الروحي والزمني



ولما كان عصر اليوم التالي المعين لحفلة الاكليل اصطف الامراء والاميرات وبقية
المدعوين في صحن دار الامير حيدر الفسيح وأخذت الزغاريد تصعد من السيدات
والجواردي وتخرج من النوافذ والابواب ولا سيما من الطبقة العليا حيث غرفة العروس
وقد مانعت دلال المشطاط والمبرجات من الاقتراب منها قائلة : يا اخذني كما انا .
ولم تدع احداً يسها سوى شقيقتها سعاد وصديقتها دعد . فضفرتا لها شعرها اللامع
السواد صفائر وارسلناه على كتفيها وعقدتا في مؤخر كل صغيرة التلقود الذهبية .
والبستها الطنطور العالي المصاغ من الفضة الخالصة المنقوشة بخيوط الذهب وهو
لودنها وعلقنا في اعلاه غشاء من الحرير الابيض انحدر بطياته على كتفيها كالشلالات
المزبدة . وشكنا في شعرها فوق الجبين عقوصا ذا شمس مذهب لامعة زاد شعرها
الحالك سواداً ولمعانا وعلقنا على صدرها صليبا من الذهب الخالص في وسطه ياقوتة
حمراء صافية الجوهر ، ووضعنا في رجليها خلخالين صغيرين من الفضة المحيكة
بالذهب

ولما أطل الموكب من أعلا الدرج الرخامي الموصل بين صحن الدار وطبقتها
العليا اهتزت جدرانها من الزغاريد وارتجت من صوت البنادق التي اطلقها الرجال
المصطفين على السطوح وحول الدار وردتها الهضاب والوديان . وكانت القرى
المحيطة باعيه تجاوب بالحربة واطلاق البنادق وقمرع الاجراس ، فكان يخيل
للعمء ان لبنان بأسره يشارك احفاد الاميرين منصور وملحم الشهابيين بهذا الفرح
وقد مدت خارج الدار المؤنذ وعلقت الحرفان المذبوحة على اشجار السندبان التي
تكتنف الدار وتكدست حول اصولها جرار النبيذ الفاخر المعد لاهل القرية والواردين اليها .

وكان يتقدم العروس شابان من الامراء يحمل احدهما مشلحاً فاخراً مشغولاً
 بنحيط الفضة الخالصة وقد رصع بالورود الحريرية الحمراء المتشابكة ، ويحمل الثاني
 مشلحاً آخر لا يقل عن الاول جمالا ولكن لونه احمر ووروده بيضاء . ووراءهما فتيات
 صغيرات حوامل الشموع والرياحين . ثم برزت العروس فعلا الهنات واحتدت
 الزغاريد ، فكانت بسلامتها الهيفاء ووجهها البيضوي الشفاف وعينيهما النجلوين
 المنخفضتين وثغرها الارجواني الملموم اشبه بالملائكة الساجدين في صورة كنيسة
 القرية . وكان الطنطور الجميل يميل مع رأسها اللطيف ذات اليمين وذات الشمال
 وتتبعه تموجات الغشاء الابيض وقد كشفت عن صدرة قرمزية اللون مفتوحة
 الجناحين وعلى كل منهما وردتان كبيرتان ثلاثات وريقاتها الناصعة البياض على
 صدر العروس . وهذه الصديرة الثمينة مع العباءة من هدايا الامير يوسف
 اعروسه .

ولما بلغ الموكب اسفل السلم تناول الامير يوسف يد الاميرة دلال ومر بها بين
 صفين من الامراء وقد عقدوا السيوف فوق رأسيهما دليلاً على التطوع للدفاع عن
 حياتهما رشحاً فيها . والفت الاميرات ورائهم جوقة لطيفة للغناء ، وقد تحلين بأفخر
 الملابس والجواهر وزين شعورهن بالورود ووضعن الانامل على شفاهن مزغردات
 مهنهات حتى دخل الموكب القاعة الفسيحة فهمدت الزغاريد وانقطعت الهازيج
 وصمتت البنادق والاجراس وعقب تلك الضجة العظيمة سكوت عميق احتراماً
 لصلاة الاكليل .

وكان القس انطون في انتظار العروسين وراء منضدة غطيت بغشاء ناعم مطرز
 بالذهب قد تدلت من اطرافه التخاريم البديعة وعليه صليب من نحاس وسطل من
 فضة للماء المكرسة وحولهما شمعتان كبيرتان ، وبالقرب منها حق الزيت المكرس
 واربعة اكاليل مزينة بالورود اثنتان من ذهب للعروسين اشتبكت فيها ازرار الورود
 الحمراء مع الازرار البيضاء علامة اتحاد العروسين واثنتان من فضة الواحد للاشيينة
 زين بالورود البيضاء المفتحة والاخر للاشين بالورود الحمراء . فوقف العروسان

امامه محتشمين وتقدم الشابات الحاملان للعباءتين المعبرتين عن ثياب العروسين فوقنا عن شماله . وكان الامير فاعور واقفاً على يمين الامير يوسف اخيه وقر به الامير حمود والد حسن وعم العروس مع اولاده . ووقفت سعاد على شمال العروس شقيقتها وقر بها والدتها ووالدها ثم دعد صديقتها وشقيقتها بالروح . واصطف بقية الامراء والاميرات حلقات الواحدة وراء الاخرى حتى ضاقت بهم القاعة على رحبها . فبدأ القس انطون الصلاة بصوت واضح فضي هاتفاً وهو ينظر الى العروسين والجمهور :

— السلام معكم

فأجابه الشمامسة بلحن خشوعي :

— ومع روحك ايضاً يا أبانا الجليل ...

فابتدأ الكاهن ببركة ثياب العروسين قائلاً :

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد امين . اقسم عليك ايها الملابس المخلوقة بحق من اعدك زينة لجنس البشر ان تكوني ثياباً طاهرة مباركة مقدسة لا عيب فيها ولا قوة للشيطان وخدمه عليها ولا نفوذ للسحر والرقى فيها . وامنح يارب لابسيها ان يستحقا النعمة والبركة السموية وينجوا من كل عارض وأذى بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

فأجاب الشمامسة بصوت رخيم تردد صده في القاعة والقلوب :

— آمين ...

ثم تناول الكاهن غصناً من الزيتون علامة السلام وغطسه في سطل الماء المبارك ونثر منه على الثياب والحضور . فتقدم حاملتا الثوبين وألبسهما للعروسين . فهتف الجمهور :

— بالهناء والسرور

ولحن الشمامسة لحناً لطيفاً . ثم طالب القس انطون من الحضور السكوت

والاصفاء فساد السكوت وبدأ ببركة خاتمي العروسين قائلا :

« نطلب منك يا رب ان تبارك هذين الخاتمين وان تعقد انعام روحك القدوس بالعريس والعروس كما تعقد الخواتم بالاصبع . فينظرا اولادهما حتى الجيل الرابع والخامس »

فأنشد أحد الشمامسة بصوت في غاية الرقة والرخامة :

« المجد لله في العلا وعلى الارض السلام والرجاء الصالح لبني البشر »
فأردف الكاهن مصليا :

« اننا نتضرع اليك ايها الاب الاله الرؤوف ان تبارك عبدك يوسف وامتك دلال ونحلهما من غلال الخطايا وان تضرم في قلوبهما نار محبتك ليرضياك بافعالهما »
ثم البس كلا من العريس والعروس خاتما في يمينه قائلا :

« لتمتد اليكما يمين سيدنا يسوع المسيح بالرحمة فتغوزا مع هذين الخاتمين بالنعمة والبركة والصيانة جميع ايام حياتكما »
ثم بارك الاكليل قائلا :

« اجمع اللهم بنعمتك العريس والعروس واشبيبيهما والمدعوين الى وليمتهم وانفهم واربطهم برباط المودة والحب الكامل ، واحفظهم بيمينك وبارك اكليلهم كما باركت اكليل اسحق ورفقا واكليل يعقوب وراحيل »

ثم تقدم احد الشمامسة وقرأ فصلا من رسالة القديس بولس الرسول جاء فيه :
« ايها النساء اخضعن لارؤساكن كما تخضعن لربنا لان الرجل رأس المرأة كما ان المسيح رأس الكنيسة . ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح يعبته وبذل نفسه دونها ليجعلها لنفسه طاهرة بهية لا عيب فيها . لان من يحب امرأته يحب نفسه فهي جسده وليس من يفيض جسده بل يعتني به ويقيته . »

ولما انتهى الشماس من القراءة رتل جوق القنيان بلحن جميل آية الكتاب المقدس :

« هذا هو اليوم الذي صنعه الرب تعالوا لنفرح به . هلاويا »

ثم ساد سكوت عميق لسماع كلام الانجيل فقرأ الاب انطون فصلاً من الانجيل متى :

« في ذلك الزمان جاء الفريسيون الى يسوع ليجربوه قائلين :

أيحل للرجل أن يطلق امرأته لاجل كل علة . فأجابهم : أما قرأتم ان الله خلق الانسان منذ الابتداء ذكراً وانثى . فلهذا يترك الرجل أبيه وامه ويتحد بزوجه فيصبح كلاهما جسداً واحداً . فما أزوجه الله لا يفرقه الانسان »

ولما انتهت الكاهن من تلاوة الانجيل التفت نحو العريس وباركه قائلاً :

— يا حضرة الامير يوسف فليباركك الله الذي أباح منذ الابتداء الزيجة بين الرجل والمرأة وأغنى نسلهما في العالم . وليعضدك بالمال والصحة ويكثر نسلك ويجعله ذرية مباركة ثابتة في الايمان الروماني المقدس . ثم اتجه نحو العروس وباركها قائلاً :

« فليباركك الله ايها العروس وبيارك بيتاً خرجت منه وبيتاً تدخلينه وليحل فيه دائماً السلام والحب والرفاهية ويكون مقاما لاکرام اسمه ويظله يمينه العلوية ويملاؤه بالخيرات الارضية والسموية .

ثم رفع يده أحد الاكاليل والتفت الى العريس سائلاً اياه :

— حضرة الامير يوسف قعدان الشهابي هل تريد ان تأخذ الاميرة دلال

حيدر الشهادية زوجة لك

فأجابه الامير يوسف بصوت واضح سمعه كل الحاضرين

— نعم

فرفع القس انطون الاكليل على رأسه راسما عليه اشارة الصليب قائلا :

— ليكلك الرب باكليل البر ويزينك زينة لا تبلى ويسربلك ازاء

قوة العدو بسلاح غالب دائما

وما انتهى الكاهن من هذا الدعاء حتى دوت القاعة بزغاريد النساء .

فانتظر الى أن همدت والتفت نحو العروس ماسكا بيده اكليلا آخر موجه

اليها السؤال نفسه . وكان يلفظ كلماته بتأن وفصاحة قائلا :

— حضرة الاميرة دلال حيدر هل تريد ان تأخذي الامير يوسف

قعدان الشهابي زوجا لك

فلم يسمع للعروس جوابا . فتداركت والتمها بقولها :

— يا حرام... مستحية

فلم يعبأ الكاهن بذلك بل أعاد على العروس السؤال للمرة الثانية بصوت

جهوري وهو يحدق بنظره فيها . فلم تتحرك شفتاها . فانهرتها والتمها قائلة .

— إحني رأسك يا دلال علامة الايجاب

فاستدرك الكاهن قائلا :

— لا بل يجب يا حضرة الاميرة أن نجيب على سؤالي بصوت واضح

ليسمعه الحاضرون . هل ترغبين في أن يكون الامير يوسف زوجا لك . قولي

تخافي ...

فساد سكوت عميق في القاعة كأن على رؤوس الجميع الطير . ورفعت

دلال عينيها الى الاب انطون فرأته ينظر اليها مشجعا . فاجابته بمجنان

ثابت :

— لا !

فانقضت هذه الكلمة على الحاضرين انقراض الصاعقة واشربأت الاعناق

وكثر التهامس واللفظ . واذا بالامير يوسف يتنحى عن عروسه ويرفع الاكليل

عن رأسه قائلاً بصوت متهدج نائراً من هذه الالهانة .

— لك تمام الحرية يا حضرة الاميرة

فصاحت بها والدتها

— ويحك ما تفعلين . قولي نعم ! ..

مسمّرت دلال عينيها في الارض ولم تنبت بينت شفة . فالتفت والدتها

نحو الاب انطون قائلة

— لا تدتريث يا ابانا لكلامها . فهي صغيرة وجاهلة خيرها . فضلاً عن

أنها تحت طوعنا وارادتنا . وقد اعطيناها للامير يوسف فليس لها أن تملي

علينا ارادتها . كلها ولا تبعاً بما تقول

فأجابها القس انطون

— لا يمكنني ان ارفع اكليلاً على رأسها الا اذا اجابت بنعم

فخلعت المرأة بالكاهن صارخة

— وهل لمثلك ان يحكم على الامراء . أنت مأجور لتكلم . فكلل

ولا شأن لك بغير ذلك

فاجابها الكاهن بهدوء وورباطة جاش

— انا اعرف واجبي حق المعرفة ولا يمكن أن احيد عنه قيد شبر لا

أنا ولا أي كاهن غيري ولو اعطيت ذهب العالم

فتدخل الامير حيدر والد العروس قائلاً :

— ان الارادة في الزواج للوالدين لا للابنة . فنحن نريد أن تكلم

ابنتنا على الامير يوسف فقم بوظيفتك بدون مباحكة !

فاجاب للقس انطون بجرأة وقد رفع صوته عالياً .

— الزواج يا حضرة الامير عقد مقدس بين العروسين لادخل لغيرهما

فيه سوى بصفة شهود . ولا يصح هذا العقد في شرع الديانة المسيحية

الا اذا اظهر كل من المتعاقدين ارادته بحرية تامة . فان لم تجب الاميرة

دلال على سؤالي بالايجاب فلا قوة في الارض ترغمني على تكايلها . وخير

لي أن أذبح على هذه المنضدة المقدسة ذبيحاً من أن أخلّ بواجبي المقدس
فرفعت والدّة دلال يدها بغضب على رأس ابنتها صارخة .

قولي نعم يا عنيده أو جعلتك جثة هامدة تحت قدمي !
فزاد وجه الفتاة اصفراراً لكنها ظلت مطرقة الرأس صامتة
فصاحت والدتها وقد جحظت عيناها وارتعدت فرائصها غضبا

— يا للعار ! يا للعار ! أبانت بك الوقاحة يا شقية ان تجمعيني علينا كل هذا
الجمهور ليشهد الفضحية التي تجليينها لدار الامير حيدر . ليتني متّ قبل أن
ولدتك ! ..

فهاج هذا الكلام غضب الامير حيدر فاستل خنجره وتقدم نحو
ابنته وصاح بها :

— قولي نعم يا شقية والا ذبحتك بهذا الخنجر !

فرفعت دلال عينيها اليه بوداعة الشاة المستمدة للذبح وفتحت صدرها
قائلة بصوت مجروح
— اذبحني يا أبت

ولم تتم كلامها حتى هوى والدها بالخنجر على قلبها . فسقطت بين يدي
شعاع .

وهمّ ان يجز عليها بطعنة ثانية لو لم يقبض الامير يوسف على يده بيد
من حديد صائحاً .

— ويحك ما تفعل !

وتبدلت الزغاريد والاهازيج في دار الامير حيدر بالندب والولاوليل
وحملت دلال الى غرفتها وقد تخففت ثيابها البيضاء بدمها الذكي . ومدت على
فراشها جثة هامدة ضحية اخلاصها وشجاعتها ...

هدايا وردت الى المجلة

خبابا الزوايا في تاريخ صيدنايا - الاديب الصديق حبيب زيات من أركان
التاريخ الوطني . يجمع سعة النظر والصدر والعلم ، وضيق الذمة في التدقيق والتحقيق
والجلد في التفتيش والتنقيب ، الى متانة العبارة وطلاوتها ورونق التنسيق والتنظيم .
كما تشهد له مقالاته وأبحاثه في المجلات ، وخاصة هذا الكتاب الدائر حول موضوع
وعر عقيم ، اي تاريخ صيدنايا وديرها القديم . فقد جمع فيه ما أمكن من المعلومات
نقلا عن اثار القرية ومخطوطات الدير ورحلات الغربين وتواريخ الشريكين واوراق
خزائن الغاتيكان والمجمع المقدس وبقية مكاتب اوربا . فجاء في ٢٩٦ صفحة بمجموع
٨ وقدمته مجلة المسرة هدية لقرائها ونعم الهدية فهو تحفة من تاريخ الوطن .

المثالث والمثاني - ثلاث مجلدات تواف ديوان الشاعر اللبناني حليم دموس ،
صاحب جريدة الاقلام الطريفة ، اذا فتحت جزءه الاول علفت به وعشقت روح
صاحبه ونظمه وتبعته بارتياح ولذة في اطوار حياته وتطور شعوره . من شاب أنيق
في ظاهره وباطنه رفيق في عاطفته ووطنيته في نظمه ونثره ، في علاقاته وآداب سلوكه
وسلامة ذوقه ، الى زوج ودود حليم أمين ، الى والديذوب حنانا وحبا وتشتمل
ضلوعه هما وغما لادنى طارىء على أسرته العزيزة ونلذتي كبده

خريطة لبنان - عني بوضعها الاديب شكري عطالله فجاءت واضحة حاوية
استبانت قري لبنان تقريبا مقسمة على مقاطعاتها موضوعة حسب مسافاتهما لا يستغني عنها
كل لبناني ومصطاف وسائح وموظف وكاتب . نحت الجميع على اقتنائها من مكتبه ازاء
المفوضية الكبرى او من بقية مكاتب بيروت

8me Année

N.o 3

15 mai 1933

La Revue Patriarcale

Rédacteur : L'abbé PAUL CARALI Direction : Beit-Chebab Liban

M.N.
DALAL M.N.
M.N. M.N.
Roman Historique Libanais

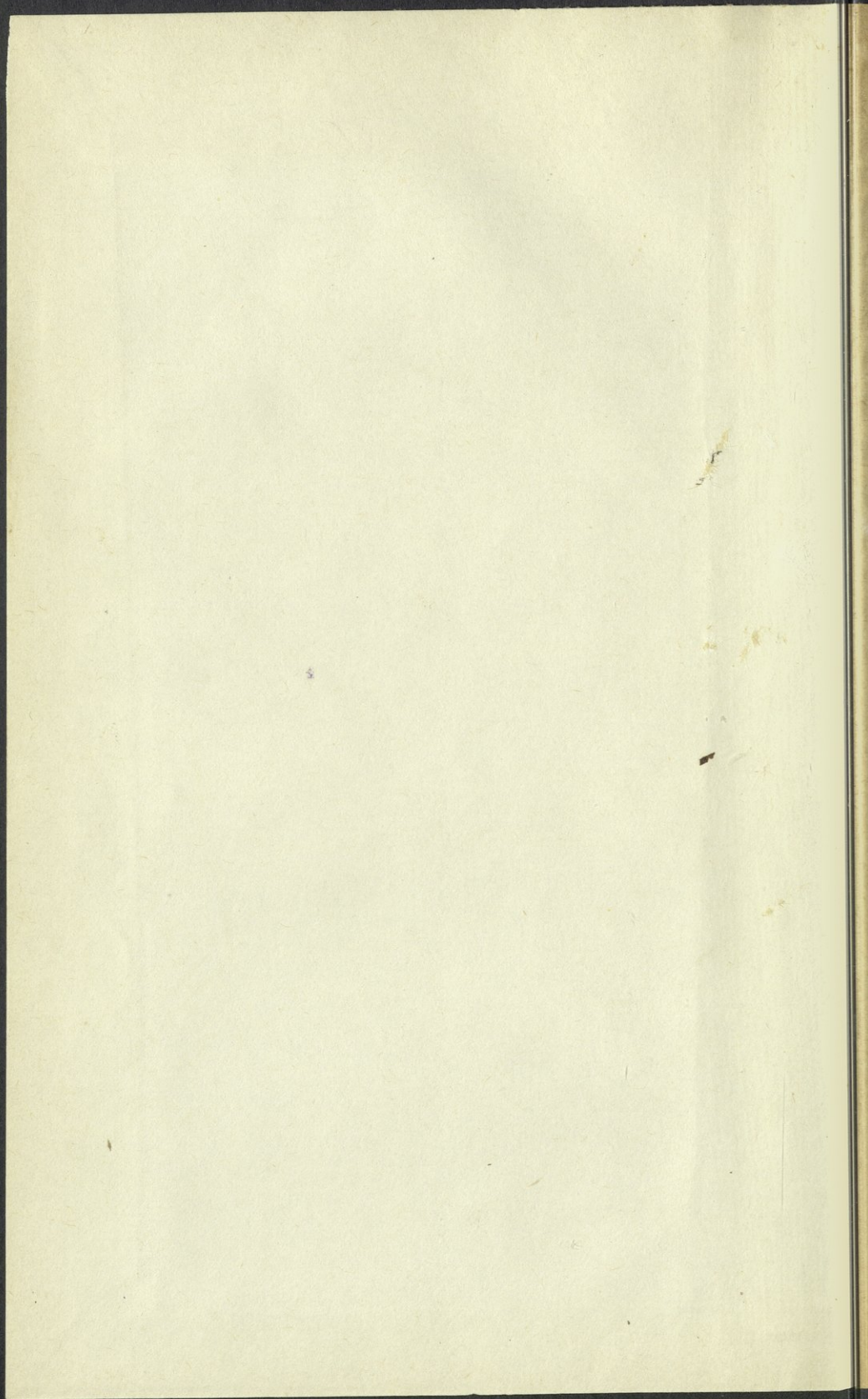
1810 — 1830

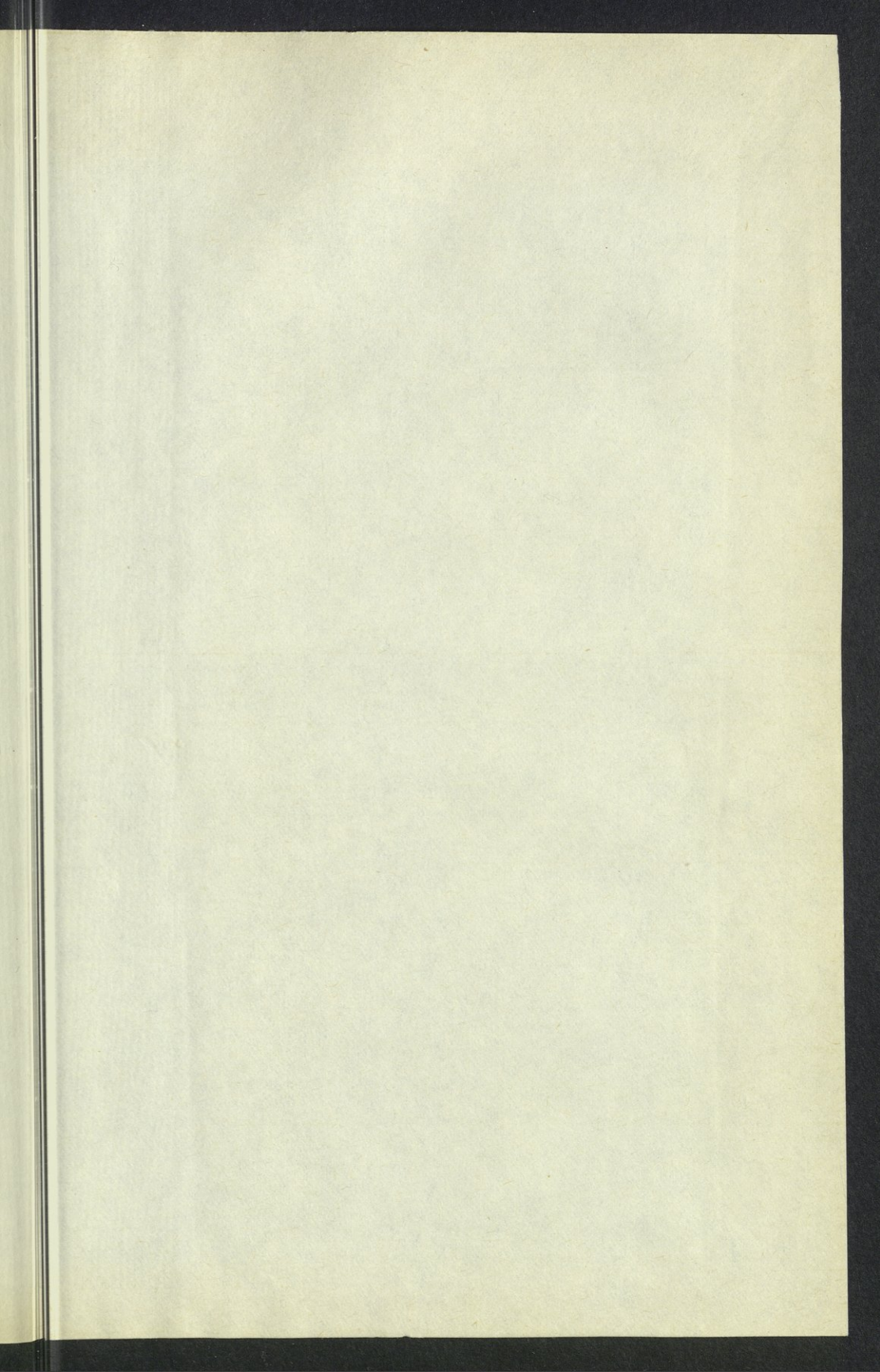
PAR

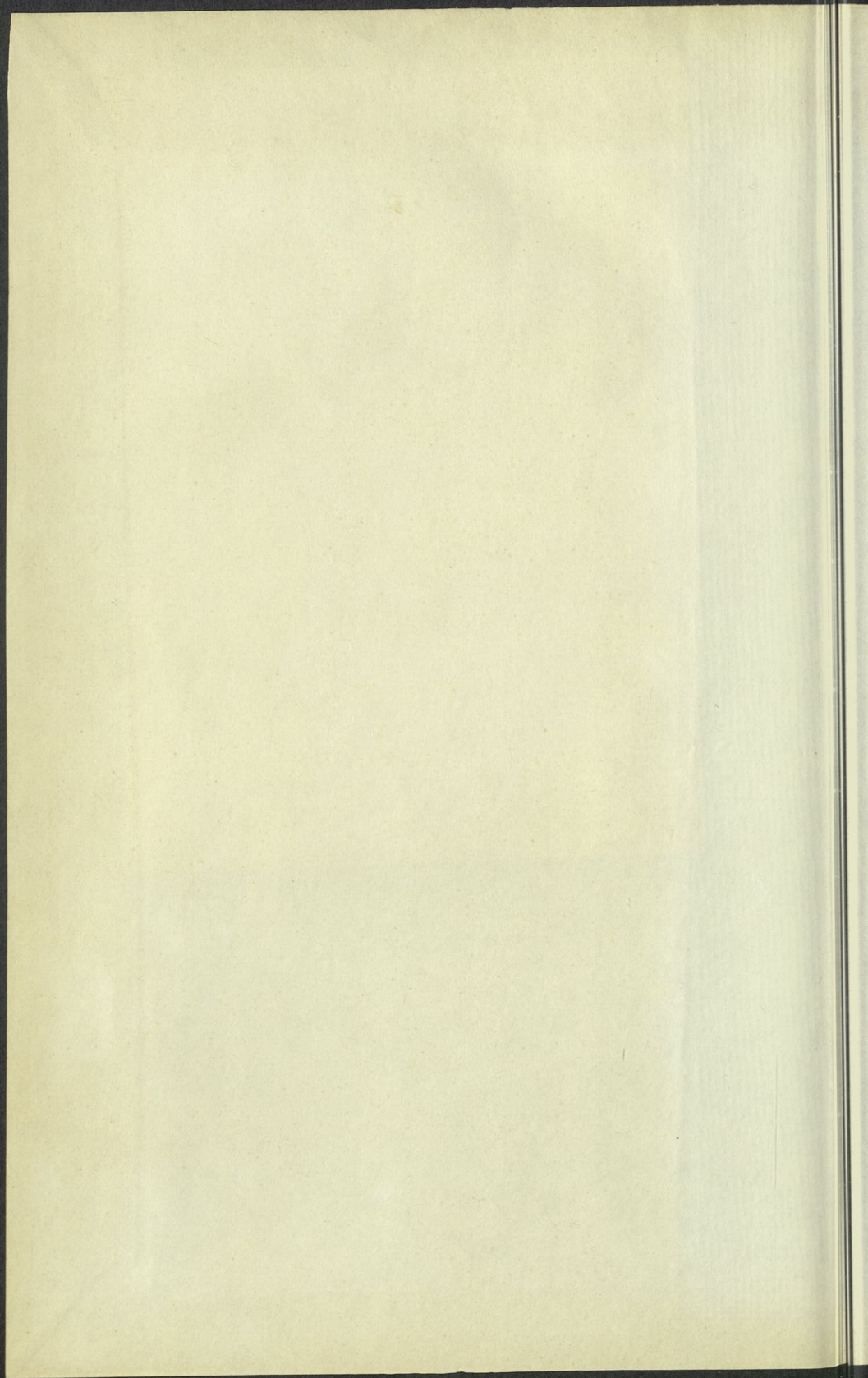
Camill Carali

Al-Kataib
Al-Hodan

Tous droits réservés







DATE DUE

JAFET LIB.

- 1 APR 1980

قرأني، كميل
دلال: رواية تاريخية في عهد الأمير بش

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038015

